

سُورَةُ النَّبَأِ

حِينَ يَسْتَيْقِظُ الْإِنْسَانُ
عَلَى الْخَبَرِ الْعَظِيمِ

تَأْلِيف: رَدَّاد السَّلَامِيُّ

سُورَةُ النَّبَاِ

حِينَ يَسْتَقْبِطُ الْإِنْسَانُ عَلَى الْخَيْرِ الْعَظِيمِ

تأليف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

من سؤال الغافلين إلى يقين الناظرين

ليست سورة النبأ حديثاً عن المستقبل فحسب، بل هي إيقاظٌ للحاضر؛ لأن القرآن حين يحدث الإنسان عن القيامة لا يريد منه أن يضيف معلومةً جديدةً إلى ذاكرته، وإنما يريد أن يُقيم في أعماقه ميزاناً جديداً للحياة، يرى به الأشياء قبل أن تنقضي، ويزن به الأعمال قبل أن تُعرض، ويستشعر به العاقبة وهي لا تزال غيباً، حتى لا يفاجئه الحق بعد أن يكون زمن الاختيار قد انتهى. ومن هنا تفتتح السورة بسؤال يهزُّ سكون الغفلة: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ؟﴾ سؤال لا ينتظر جواباً معرفياً بارداً، فقد كان المتسائلون يعرفون موضوع الدعوة، وإنما يكشف اضطرابهم أمام الخبر الذي جاء ليهدم التصور الذي بنوا عليه حياتهم: أن يموت الإنسان ثم لا يعود، وأن يظلم ثم لا يُسأل، وأن يعبر الدنيا دون أن يقف بين يدي خالقه.

إنها سورة تعيد بناء الوعي من جذوره؛ تبدأ من الجدل الذي يدور في المجالس، ثم تنقل الإنسان إلى الجبال والأرض والليل والنهار، ثم ترفعه إلى السماوات، ثم تهبط به إلى الحقول والجنان، كأنها تقول له: إن كنت تستبعد البعث، فانظر أولاً إلى العالم الذي تعيش فيه؛ فهذا الوجود كله شهادة متصلة على القدرة والحكمة والتقدير. إن الأرض الممهدة، والجبال الراسيات، والزوجية المبنوثة في الخلق، والنوم الذي يطوي الوعي ثم يرده، والليل الذي يستر، والنهار الذي يكشف، والسماء المحكمة، والشمس المتوجهة، والماء النازل من

المعصرات، والحب والنبات والجنات؛ ليست مشاهد صامتة، وإنما هي حججٌ ناطقة لمن حرَّ
بصره من العادة، وأعاد إلى قلبه دهشة النظر.

فسورة النبأ لا تفصل بين التأمل في الكون والإيمان بالآخرة؛ لأن الذي يرى إحكام البداية
لا يستغرب إمكان الإعادة، والذي يقرأ الحكمة في تركيب العالم لا يقبل أن تكون نهايته
عبثاً. ولو انتهى الإنسان إلى التراب دون حساب، وصار المحسن والمسيء إلى مصير واحد،
لكان في النفس سؤال لم تجب عنه الحياة الدنيا، وكان تاريخ الألم والظلم والتضحية ككأباً
مبتور الخاتمة. لكن يوم الفصل هو الخاتمة التي تسترد بها القيم معناها، وتظهر بها العدالة
كاملةً غير منقوصة، ويعلم الإنسان أن شيئاً لم يضع في الطريق: لا دمعة المظلوم، ولا خيانة
الظالم، ولا صبر المؤمن، ولا خطوة الخير التي نسيها صاحبها وبقيت محفوظةً عند الله.

وسنعمد في هذه الرحلة التدريجية منهجاً يبدأ من ظاهر الآية ودلالاتها المحكمة، وينظر في
سياقها وصلتها بما قبلها وما بعدها، ثم يفتح على ما توقظه في العقل والوجدان من معانٍ
تربوية وإنسانية، من غير أن نحمل النص ما لا يحتمل، أو نجعل التأمل بديلاً عن التفسير.
فالتفسير يحدّد أرض المعنى التي نقف عليها، أما التدبير فيسأل: ماذا يصنع هذا المعنى في
القلب؟ كيف يعيد ترتيب علاقتنا بالزمن، والعمل، والموت، والمصير؟ وما الغفلة التي
تكشفها الآية فينا، وما البصيرة التي تريد أن تنشئها؟ وبذلك لا يكون التأمل تحليلاً بعيداً عن
مقصد الوحي، بل اقتراباً من أثره، ولا يكون الأدب زينةً توضع على المعنى، بل لغةً
تستبطن جلاله وتحاول أن تنقل شيئاً من وقعه في النفس.

وسنلتزم كذلك بالفصل بين الوحي القطعي وبين الخاطر التدبري؛ فما أخبر الله به حقٌّ لا
يتطرق إليه الارتياب، أما ما نستنبطه من ظلال تربوية وإشارات وجدانية فهو اجتهادٌ

يُعرض على دلالة الآيات ولا يُجعل مراداً حتمياً لها. فالقرآن أعلى من أن يُختزل في انفعال عابر، وأغنى من أن يُحبس في تجربة فردية، لكنه يخاطب كل قلب بما يوقظه، ويفتح لكل متدبر باباً من النور ما دام واقفاً عند حدود اللسان والسياق والعقيدة، مستشعراً أن كلام الله يُتلقى بالتعظيم قبل أن يُقارب بالبيان.

وتتحرك السورة في بنائها حركةً مهيبة: من السؤال إلى الجواب، ومن التكذيب إلى البرهان، ومن الكون المشهود إلى اليوم الموعود، ومن مشهد الطاغين في جهنم إلى مشهد المتقين في المفاز، ثم تنتهي بالموقف الذي لا يملك فيه أحدٌ كلاماً إلا بإذن الرحمن، وبالإندار القريب الذي يرى فيه المرء ما قدّمت يداه، ويتنقّى الكافر عنده لو لم يُخلَق للتكليف والحساب: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾. وهذه الحركة ليست ترتيباً موضوعياً فحسب، بل مساراً لإعادة الإنسان إلى الحقيقة: يبدأ متسائلاً في ضجيج الناس، وينتهي وحيداً أمام عمله.

وفي مركز السورة يقف مفهوم الفصل؛ فالحياة الدنيا تختلط فيها الأوراق، وقد تلتبس المقامات، ويلبس الباطل ثوب الحق، ويبدو الطاغية منتصراً، ويتوارى الصادق خلف غبار التهم، لكن يوم الفصل يعيد كل شيء إلى اسمه الحقيقي وموضعه العادل. هناك لا تنفع الأقنعة التي طالما حمت أصحابها من أعين البشر، ولا العبارات التي أحسن تركيبها لتبرير الانحراف، ولا المكانة التي أجبرت الناس على الصمت؛ إذ ينكشف الإنسان من داخله، ويقف عمله شاهداً عليه، وتسقط المسافات المصطنعة بين السريّة والصورة.

وسوف نمضي مع السورة في فصول مترابطة، لا تفصل آياتها عن وحدتها، ولا نذيب خصوصية كل آية في الكلام العام؛ فنقف أولاً عند سؤال النبأ العظيم، ثم نتأمل كيف يحوّل القرآن مشاهد الكون المألوفة إلى براهين على البعث، وكيف يأتي يوم الفصل خاتمةً

لنظام الخلق، ثم ندخل مشاهد الطغيان والجزاء دخول المتعظ لا دخول المتفرج، وننتقل إلى مفاز المتقين حيث يتجلى العطاء بوصفه جزاءً ورحمةً وكرامة، ثم نقف عند جلال الرحمن وصفوف الملائكة وصمت الخلائق، قبل أن نختم بالإنذار الأخير الذي يضع الإنسان وجهًا لوجه أمام ما صنعت يداها.

إن الغاية من هذا الكتاب ليست أن نشرح سورة النبأ ثم نغادرها كما دخلنا، بل أن ندعها تعيد تشكيل إحساسنا بالدينا؛ أن تجعلنا أقلَّ اقتتانا بما يزول، وأكثر خوفًا مما يبقى، وأشدَّ وعيًا بأن كل لحظة تُنقل من سجل الزمن إلى سجل العمل. فإلى الآخرة في القرآن حكاية مؤجلة، وإنما هي الحقيقة التي تمنح الحاضر وزنه؛ وكلما ازداد يقين الإنسان بلقاء الله، ضاق في نفسه مجال العبث، واتسع فيها مجال المسؤولية، وصار الزمن أمانةً، والاختيار شهادةً، والعمل رسالةً يعثها المرء إلى اليوم الذي سيقراً فيه كل ما كتب.

وسورة النبأ، على قصر آياتها، تبني في النفس أفقاً كاملاً: فوقها كونٌ محكم، وتحتها أرضٌ ممهدة، وخلفها ماضٍ من النعم والدلائل، وأمامها يومٌ للفصل، وفي داخلها قلبٌ مدعوٌّ إلى أن يختار موقعه قبل أن يُنفخ في الصور. إنها لا تسمح للإنسان أن يبقى متفرجاً على الوجود؛ لأن من أدرك أن لهذا العالم رباً حكيماً، ولهذه الحياة موعداً، ولهذا الموعد حساباً، لم يعد السؤال عنده: هل سيأتي النبأ العظيم؟ بل صار سؤاله الأشدَّ إلحاحاً: بأي قلبٍ وعملٍ سألقى ذلك النبأ حين يصير مشاهدةً لا خبراً، وحضوراً لا انتظاراً، وبقينا لا يبقى بعده متسعٌ للاختيار؟

الفصل الأول

النَّبِيُّ الَّذِي أَقْلَقَ غَفْلَةَ الْعَالَمِ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾

تبدأ السورة بصوت السؤال قبل أن تذكر السائلين؛ لأن المقصود ليس تسجيل حوار وقع في مجلس من مجالس مكة وانقضى، وإنما الكشف عن حالة إنسانية تتكرر كلما جاء الوحي بما يهز استقرار الغفلة، ويطالب الإنسان أن يعيد النظر في الغاية والمصير. ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾: عن أي شيء يتساءلون؟ وما هذا الأمر الذي شغل ألسنتهم، وتوزعت حوله مواقفهم، وأثار في نفوسهم ذلك القلق الذي حاولوا إخفائه بالسخرية تارةً، وبالجدل تارةً، وبالإنكار الصريح تارةً أخرى؟

إن اختيار لفظ ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ يوحي بأن الخبر لم يعد حديثاً يُسمع ثم يُنسى، بل صار قضيةً تنتقل بينهم؛ يسأل بعضهم بعضاً عنها، ويستطلع المتردد رأي المكذب، ويلتمس الخائف طمأنينةً من المستكبر، ويحاول الجميع أن يصنعوا من كثرة الاعتراض حجاً يحول بينهم وبين رهبة الحقيقة. غير أن كثرة الأسئلة لا تعني دائماً الرغبة في المعرفة؛ فقد يسأل الإنسان ليتعلم، وقد يسأل ليؤجل التسليم، وقد يحول السؤال إلى ملجأ نفسي يحمي داخله من الجواب الذي يعرف أن قبوله سيغيّر حياته.

كان خبر البعث يطاردهم؛ لأنهم أدركوا أن الإيمان به ليس فكرةً يمكن وضعها إلى جانب أفكارهم القديمة، بل زلزالٌ يقلب نظام حياتهم من أساسه. فإذا كان الموت ليس نهايةً، فالثروة التي جُمعت بغير حق ليست نجاة، والجاه الذي أذلَّ الضعفاء ليس مجداً، واللذة التي قامت على الظلم ليست فوزاً، والقوة التي لم تخضع للعدل ليست امتيازاً؛ بل كل ذلك ملفاتٌ مفتوحة تنتظر موعد العرض. ولهذا لم تكن معركة المكذبين مع إمكان الإحياء وحده، بل مع ما يترتب عليه من مسؤولية؛ فالإنسان قد يرفض الفكرة لا لضعف دليلها، وإنما لشدة تكلفتها الأخلاقية.

إن الإيمان بالآخرة يسحب من الطاغية وهم الإفلات، ومن الغني المتجبر وهم الامتلاك المطلق، ومن صاحب السلطة وهم أن التاريخ آخر المحاكم، ومن النفس شهوة أن تعيش بلا حساب. وهو لهذا نبأٌ لا تطبيقه حياة أُسست على الاستباحة؛ لأن من يريد أن يفعل ما يشاء يتقى في أعماقه كوناً بلا قيامة، ومن يريد أن يظلم مطمئناً يحتاج إلى موتٍ لا يعقبه بعث، وإلى ترابٍ يطوي الجريمة والضحية معاً. أما القرآن فيردُّ الإنسان من هذه الأمنية المظلمة إلى الحقيقة: سُبُحْتَ، وسترى، وسيظهر ما أخفيت، ولن يضيع عند الله شيءٌ.

عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ

لم تقل الآية: عن النبأ، فحسب، بل وصفته بالعظمة؛ والعظيم ليس فقط ما عظم في ذاته، وإنما ما اتسعت آثاره حتى لم يترك شيئاً إلا مسَّه وغير موقعه. والبعث نبأٌ عظيم لأنه يغير معنى الحياة كلها: يجعل للميلاد غايةً، وللعمُر وظيفةً، وللألم خاتمةً عادلة، وللخير ثمرةً لا تفتنى، وللشر موعداً لا يفوته. إنه لا يضيف يوماً جديداً إلى أيام الإنسان، بل يكشف أن أيامه

السابقة كلها كانت تمضي نحوه، وأن كل ما حسبه الإنسان أحداثاً متفرقةً إنما كان فصلاً من سيرة ستُقرأ كاملةً بين يدي الله.

والنبا في اللسان ليس أي خبر؛ بل الخبر ذو الشأن الذي يتعلق به معرفةٌ كبيرة وتترتب عليه آثار. فإذا سماه الله ﴿النَّبِيَّ الْعَظِيمَ﴾، فليس بعد وصف الله تقديرٌ يرفعه أو إنكارٌ يضعه؛ وإنما الشأن في قلب الإنسان: هل يستقبل العظيم بما يليق به من انتباه، أم تمرُّ به الحقائق الكبرى كما تمرُّ الأصوات العابرة؟ كم من أمر صغير يحتل في نفوسنا مساحةً هائلة، وكم من حقيقة هائلة لا تجد فيها موضعاً! قد يقضي المرء ساعاتٍ في متابعة خبرٍ لن يغير شيئاً من مصيره، ثم يسمع خبر القيامة فلا يمنحه إلا لحظةً باردة؛ وكأن اضطراب الموازين يبدأ حين تصغر العظام في القلب، وتعظم الصغائر.

والقرآن يعيد هنا ترتيب سلم الأخبار. فما يملأ المجالس اليوم قد يُنسى غداً، وما تتسابق إليه العيون قد يصبح بعد حين خبراً قديماً لا يعني أحداً، لكن نبا القيامة لا يشيخ، ولا يفقد راهنيته، ولا ينتقل إلى أرشيف الماضي؛ لأنه مستقبل كل حي، والموعد الشخصي الذي يمضي نحوه كل إنسان منذ ولادته. إنك كلما قطعت يوماً من عمرك لم تبتعد عن الخبر، بل اقتربت منه، وكلما تساقطت من يدك ورقةٌ من تقويم الزمن انكشف جزءٌ جديد من الطريق المؤدي إليه.

ولأن الإنسان مخلوقٌ في الزمن، فإنه قد يظن البعيدَ مستحيلاً، ويحسب تأخر الشيء دليلاً على عدم مجيئه. لكن القيامة لا تُقاس بعجلة البشر، ولا تُغنى لأن أجيالاً ماتت قبل أن تراها؛ فهي في علم الله موعدٌ معلوم، وفي نظام الوجود غايةٌ مقدرة، وفي حياة كل امرئ أقرب إليه مما يوحي به انغماسه في الدنيا. وبين الإنسان وبين انكشاف الغيب موتةٌ واحدة؛

فإذا مات سقط عنه وهم المسافة، ودخل في أول منازل الآخرة، وعلم أن ما كان يسميه بعيداً لم يكن بعيداً إلا عن شعوره الغافل.

الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ

الاختلاف هنا ليس خلافاً هادئاً بين باحثين تجردوا للحق، بل تفرقاً في المواقف من البعث والوحي وما جاء به الرسول ﷺ، فمنهم المنكر، ومنهم المتردد، ومنهم من يصغي إلى الحقيقة ثم تمنعه العصبية والمصلحة من اتباعها. وقد يكون الاختلاف أحياناً علامةً على حيوية البحث، لكنه قد يصير حجاباً حين يستعمله الإنسان ذريعةً للتهرب من وضوح الحق: ما دام الناس مختلفين فلن أحسم، وما دامت الأصوات كثيرةً فسأظل واقفاً في المنطقة الرمادية. غير أن تعدد المواقف حول الحقيقة لا ينفي وجودها؛ فالناس يختلفون في رؤية الشمس، لا لأن الشمس غائبة، بل لأن بعضهم فتح عينيه، وبعضهم أغمضهما، وبعضهم وقف وراء جدار ثم زعم أن الضوء لم يصل إليه.

ولم تقل الآية: الذي يختلفون فيه، بل قالت: ﴿هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾، فكأنهم داخل دائرة الاختلاف، محاطون بها، يتقبلون في جملها ولا يخرجون إلى سكينه اليقين. إن الاختلاف حين لا تقوده رغبة صادقة في الحق يتحول إلى بيئةٍ نفسية يعيش فيها الإنسان، يلتقط منها ما يوافق هواه، ويستأنس بكثرة المترددين، ويظن أن ازدحام الأصوات يعفيه من مسؤولية الموقف. لكن الله لا يحاسب الإنسان على كثرة الأصوات من حوله، بل على الصدق الذي واجه به الدليل، وعلى القلب الذي نظربه، وعلى إرادته: أكانت تريد الحق أم تريد مهرباً منه؟

ومن أعمق ما تكشفه الآية أن القضية التي يختلف فيها الناس اليوم قد تصبح غداً الحقيقة التي لا يختلف عندها اثنان. فالاختلاف متاح ما دام الأمر خبراً، أما إذا صار الخبر مشاهدةً فقد انتهى زمن المواقف. يستطيع الإنسان الآن أن يؤمن أو يكفر، ويصدق أو يسخر، ويقترب أو يعرض؛ لأن الدنيا دار اختيار، لكن حين تنشق السماء وتُسِير الجبال ويقوم الناس لرب العالمين، لن يكون ثمة رأيان في حقيقة القيامة. ستتوحد المعرفة يومئذ، لكن ذلك التوحد لن ينفع من اختار العمى في زمن إمكان الإبصار.

ومن هنا كانت قيمة الإيمان بالغيب: أن تعرف قبل أن ترى، وأن تستجيب للخبر الصادق قبل أن يتحول إلى مشهد قاهر، وأن تهتدي بالوحي حيث لا تملك الحواس أن تبلغ وحدها. فليس الإيمان بالغيب إلغاءً للعقل، بل تحريراً له من غرور الحس؛ لأن حقائق الوجود ليست محصورة فيما تراه العين، والعقل السليم لا يقول: ما غاب عني معدوم، وإنما يقول: ما ثبت خبره عن الله فهو أصدق من مشاهدي، إذ قد يخطئ البصر ولا يخطئ خبر العليم الخبير.

كَلَّا سَيَعْلَمُونَ

تأتي ﴿كَلَّا﴾ قاطعةً لجبال الجدل، رادعةً عن الإنكار، كأنها ضربةً بيانية تُسقط الضوضاء دفعةً واحدة: ليس الأمر كما يزعمون، وليس الاختلاف قادراً على تغيير الحقيقة، وليست السخرية حجةً، ولا التأجيل نجاةً. ثم يأتي الوعد المزلزل: ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾. لم تقل الآية: سيؤمنون؛ لأن الإيمان موقفٌ اختياري في الدنيا، أما العلم يوم القيامة فاضطراً تفرضه المشاهدة. سيعلمون حين لا يعود العلم فضيلةً، وحين تصبح الحقيقة محيطةً بهم، وحين ينكشف لهم أن إنكارهم لم يكن إلغاءً للوعد، بل إضاعةً لفرصة الاستعداد له.

وهنا يظهر الفارق الهائل بين علمين: علمٌ يُثر قبل وقوع الحقيقة، وعلمٌ يأتي بعد فوات زمن العمل. الأول نورٌ وهداية ونجاة، والثاني حسرةٌ واعتراف لا يغير المصير. إن الناس جميعاً سيعرفون الحقيقة في النهاية، لكن السعيد من عرفها في الوقت الذي يستطيع فيه أن يبني عليها عملاً، وأن يتوب، ويصحح، ويرد المظالم، ويهذب قلبه. أما المعرفة التي تقع عند حضور الموت أو قيام الساعة فهي كمعرفة الغريق بقيمة الياسة بعد أن انقطعت به أسباب الوصول إليها.

لقد كان يمكن أن يقال: كلا سيبعثون، أو كلا سيحاسبون، لكن التعبير بـ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ يوجّه الضوء إلى جذر المأساة: فساد المعرفة التي اختار الإنسان أن يعيش بها. سيعلم أن القوة التي اعتر بها كانت عارية مؤقتة، وأن المال الذي ظنه حصناً تركه خلفه، وأن الجسد الذي خدم شهوته صار شاهداً عليه، وأن الكلمات التي أطلقها ثم نسيها لم ينسها الكتاب، وأن الله أمهله رحمةً لا عجزاً، وستره فتحاً لباب التوبة لا قبولاً بالجريمة.

إن «سيعلمون» وعيدٌ للغافل، لكنه في الوقت نفسه رحمةٌ بالقارئ الحي؛ لأنه يخبره الآن بما سيعلمه الجميع لاحقاً، ويفتح له باب السبق إلى اليقين. فكل إنذار في القرآن نعمةٌ قبل أن يقع المنذر به؛ إذ يمنح الإنسان فرصة أن يحوّل علم المستقبل إلى عمل في الحاضر. وما دام القلب ينبض، فإن ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ ليست حكماً نهائياً عليك، بل دعوةٌ لأن تقول: قد علمت الآن يا رب، فاهديني إلى عملٍ يصدق هذا العلم.

ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ

يتكرر الوعيد، لكن التكرار القرآني ليس إعادةً لفظيةً خاوية؛ إنه تثبيتٌ للمعنى، وتصعيدٌ لوقعه، وإشعارٌ بأن وراء العلم الأول علماً أشد، ووراء انكشاف الحقيقة مشاهدةً لتفاصيلها

وتتأجها. قد يعلمون عند الموت أن الوعد حق، ثم يعلمون عند البعث والحساب علماً أوسع وأهول؛ وقد يرون بدء الأهوال، ثم يرون المصير الذي أعدّه الله للطاغين. وبين ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ الأولى والثانية مسافةً من الرهبة لا تقيسها الكلمات، لكنها تجعل الوعيد كأنه موجتان متتابعتان لا تتركان للغرور موضعاً يستقر فيه.

وجاءت ﴿ثُمَّ﴾ بما فيها من التراخي والانتقال، لتوحي بأن انكشاف الآخرة درجاتٌ ومواقف، وأن كل موقف يفتح على ما بعده من حقائق أشدّ ظهوراً. فالموت يعلم الإنسان شيئاً، والبعث يكشف له شيئاً آخر، والعرض يضع أمامه سجّله، والحساب يبيّن له مقدار ما صنع، والجزاء يحول العلم إلى مصيرٍ مقيم. وما أفسى أن يظل المرء ينتقل من علمٍ إلى علم، وكل علمٍ جديد لا يزيده إلا حسرةً، لأنه كان قادراً في الدنيا أن يجعل معرفته طريق نجاة، فاختر أن يجعل جهله المصطنع ستاراً لشهوته.

والتكرار كذلك يفضح وهم الإنسان بأن تجاهل الحقيقة يُضعفها. نحن نستطيع أن نؤجل التفكير في الموت، لكننا لا نؤجل الموت؛ ونستطيع أن نبتعد عن آيات القيامة، لكن القيامة لا تبتعد عنا؛ ونستطيع أن نصنع لأنفسنا حياةً صاخبةً لا نسمع فيها صوت المصير، لكن الصخب كله سينقطع، ويبقى الصوت الذي حاولنا الهرب منه. إن الحقائق لا تحتاج إلى اعترافنا لكي توجد، وإنما نحن الذين نحتاج إلى الاعتراف بها لكي ننجو.

وفي افتتاح السورة كلّ عتابٍ خفيٍّ للعقل الذي يستغرق في السؤال عما أقيمت عليه البراهين، ويترك السؤال الأجدر به: ماذا أعددت؟ فليس أخطر ما يصيب الإنسان أن يجهل التفاصيل التي لم يُكلّف بها، وإنما أن يجعل الجدل حول الغيب عذراً لتعطيل واجب الحاضر. قد يسأل عن توقيت الساعة، وعن صورة بعض مشاهدها، وعن دقائق لا ينبغي

عليها عمل، بينما يترك قلبه بلا توبة، ويده مثقلةً بحقوق العباد، وعمره ينسحب من بين أصابعه. وهكذا تتحول الأسئلة من مفاتيح للمعرفة إلى أبواب للهروب.

إن السؤال الذي تريد سورة النبأ أن تنقله إلى أعماقنا ليس: متى تقع القيامة؟ بل: ماذا صنعتُ للوقوف فيها؟ وليس: كيف يعود الجسد بعد فثائه؟ بل: كيف ألقى الله بهذا القلب الذي أفسدته الغفلة؟ وليس: كيف تبدل الأرض والسماء؟ بل: لماذا لم يتبدل سلوكي بعدما جاءني الخبر اليقين؟ فالذي صدق بالنبأ العظيم لا بد أن يصبح للنبأ أثرٌ في خلوته ومعاملته وخصومته وحبه وبغضه؛ وإلا ظل الإيمان فكرةً عند أطراف اللسان، لم تنزل إلى المركز الذي تصدر عنه الحياة.

وإذا كان المكذبون قد اختلفوا في النبأ، فإن المؤمن لا يكفيه أن يقف في الجهة الصحيحة من القضية بلسانه، بل عليه أن يحرر حياته من آثار التكذيب الخفي. فقد يقرأ المرء بالقيامة عقيدةً، ثم يتصرف كأنها لن تكون: يظلم مطمئناً، ويؤجل التوبة، ويبيع المبدأ لمنفعة عابرة، ويهدر الوقت فيما لا يبقى، ويخشى الناس أكثر من خشيته لله. وهذا ضربٌ من التناقض بين علم العقل وغفلة السلوك؛ والسورة لا تريد تصديقاً نظرياً فحسب، بل تريد أن يصبح النبأ العظيم قوةً حاضرةً تعيد ترتيب القلب.

إن من عاش على يقين الآخرة لا يصغر أمام الدنيا، ولا يبيع نفسه لكل عارض منها؛ لأنه يعرف أن الرزق الذي يفوته هنا قد يعوّض، وأن المكانة التي تُسلب منه ليست منزلته عند الله، وأن انتصار الباطل جولةٌ داخل زمن محدود، لا كلمة التاريخ الأخيرة. ويعرف المظلوم أن قضيته لم تُغلق لأن قاضي الأرض عجز أو جار، ويعرف صاحب الخير أن معرفته لم يضع لأن الناس أنكروه، ويعلم التائب أن باب العودة مفتوح ما دامت شمس الدنيا لم تغرب

عنه. وهكذا لا يجعل الإيمان بالآخرة الإنسان هارباً من الحياة، بل أكثر قدرةً على العيش فيها بكرامة؛ لأنه تحرر من وهم أنها كل شيء.

إن الآيات الخمس الأولى تضعنا أمام مفترق طريقين: طريق الذين يتساءلون ليهربوا من الجواب، وطريق الذين يسألون ليهتدوا إلى العمل. الأولون ينتظرون أن تصير الحقيقة عياناً، وعندئذٍ ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾، والآخرين يستقبلون الخبر الصادق بقلبٍ منيب، فيعلمون اليوم علماً ينقذهم من حسرة العلم غداً. وبين الطريقين عمرٌ قصيرٌ يسمى الدنيا؛ فيه يستطيع الإنسان أن يختار، وأن يعيد كتابة نهايته قبل أن يطوى الكتاب.

وهكذا يبدأ النبأ العظيم عمله في القلب: لا يمنحه جواباً مريحاً فحسب، بل ينتزع منه الطمأنينة الكاذبة، ويزرع فيه قلق المسؤولية، ثم يقوده إلى الطمأنينة الحقيقية؛ طمأنينة من علم أن العالم لم يُخلق عبثاً، وأن العدل وإن تأخر ظهوره لا يغيب، وأن وراء اختلاط الأيام يوماً اسمه يوم الفصل. وبعد أن طرق القرآن باب الوعي بهذا السؤال المهيب، سيفتح أمام العين كتاب الكون، ويقيم من الأرض والجبال والنوم والليل والنهار براهين على أن الذي أحكم هذا الخلق أول مرة قادرٌ على أن يبعثه، وأن النبأ الذي اختلفوا فيه مكتوبٌ في كل شيء. ينظرون إليه، لو أنهم أبصروا.

الفصل الثاني

الْكُونُ حِينَ يَشْهَدُ لِلْبَعْثِ

﴿لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾

بعد أن واجهت السورة المتسائلين بالنبا العظيم، لم تمضِ بهم مباشرةً إلى مشاهد القيامة، بل أعادتهم إلى العالم الذي يفتحون أعينهم عليه كل صباح. كأن القرآن يقول لهم: قبل أن تسألوا عن قدرة الله على إعادتكم، انظروا كيف أنشأكم وأقام لكم هذا الوجود؛ وقبل أن تستبعدوا العالم الآخر، اقرأوا العالم الأول قراءةً جديدة. فالمشكلة ليست أن البراهين بعيدة، بل أن الألفة حجبها، وليست أن الإنسان يفتقد الدليل، وإنما أنه اعتاد الدليل حتى كف عن رؤيته.

إن العادة تمنح الإنسان القدرة على العيش، لكنها قد تسلبه القدرة على الدهشة؛ فهو يمشي على الأرض فلا يسأل كيف مهدت، ويرى الجبال فلا يتأمل رسوخها، وينام ثم يستيقظ فلا يشعر بالعجبية التي عبرها، ويشهد الليل والنهار يتعاقبان في انتظام لا يختل، ثم يتعامل مع هذا كله كأنه أمرٌ واجبٌ بذاته، لا أثرٌ لإرادةٍ حكيمة ولا آيةٌ لقدرةٍ عظيمة. ومن هنا لا يأتي القرآن دائماً ليضع أمامنا مشاهد جديدة، بل ليهبنا عيناً جديدةً ترى القديم كأنها تراه للمرة الأولى.

والاستفهام في قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ﴾ ليس سؤال من يطلب علماً، وإنما سؤال من يوقظ الاعتراف الكامن في الفطرة؛ فالأرض أمامهم، والجبال حولهم، والنوم يغشاهم، والسماء تعلوهم، والشمس تملأ نهارهم، والمطر يحيي أرضهم. إنهم لا يستطيعون إنكار هذه الآيات، لكن القرآن يريد أن ينقلهم من الاعتراف بالنعمة إلى الاعتراف بالمنعم، ومن مشاهدة الصنعة إلى معرفة القدرة، ومن الإقرار بالبداية إلى اليقين بالإعادة. فما دام الخلق الأول واقعاً يشهدون آثاره، فكيف يصير الخلق الآخر موضع استبعاد؟

الْأَرْضُ مِهَادًا: نِعْمَةٌ اخْتَفَتْ لِشِدَّةِ قُرْبِهَا

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾

المهاد ما يُوطأ ويُهَيَّأ للاستقرار، وفي الكلمة حنانٌ خفيٌّ؛ فهي تستدعي صورة الموضع الذي يُهَيَّأ للصغير قبل أن يملك القدرة على تهيئته لنفسه. هكذا كانت الأرض قبل مجيء الإنسان: سبقت حاجاته وجوده، وهياً الله له مكانه قبل أن يفتح عينيه، وأعدَّ له الهواء والماء والتربة والرزق قبل أن تمتد يده إلى شيء. لقد دخل الإنسان عالماً لم يصنع شروط الحياة فيه، ثم طال به المقام حتى توهَّم أنه المالك الأصلي، ونسي أنه ضيفٌ وجد المهاد معداً والنعمة سابقة.

ليست الأرض مهاداً بمعنى السكون المطلق، ولكن بمعنى أنها جُعِلَتْ صالحةً لحياة الإنسان واستقراره وسعيه؛ يزرع فيها، ويبني عليها، ويسافر في مناكبها، ويدفن فيها موتاه، وينتظر منها أن تخرج زرعه مرةً بعد مرة. إنها تتحرك في نظام هائل لا يشعر معه الجالس باضطرابها، وتحمل على ظهرها حضاراتٍ ومدناً وجيوشاً وأحلاماً، ثم تفتح ترابها في هدوء لاستقبال

الأجيال حين تنتهي آجالها. الأرض مهدٌ في البداية، وقبرٌ في النهاية، ثم تكون يوم البعث ساحةً لخروج ما استودع فيها.

وفي وصفها بالمهاد تذكرُ بضعف الإنسان مهما بلغ؛ فمن يحتاج إلى أرضٍ تُمهّد له ليس مستقلاً عن ربه، ومن يتوقف حياته على قدرٍ دقيق من الحرارة والهواء والماء لا يملك أسباب بقاءه كما يتوهم. إننا نعيش داخل رعايةٍ إلهية متصلة، لكن انتظامها يحجب عنا الشعور بها؛ ولو اختل واحدٌ من شروطها القريبة لأدركنا أن ما كنا نسميه «طبيعياً» لم يكن إلا نعمةً تتجدد في كل لحظة.

والأرض نفسها التي جعلها الله مهاداً ستفقد يوم القيامة صورتها المألوفة؛ فما مهدٌ للحياة لم يُجعل للخلود، وما استقرت تحت القدمين ليس القرار الأخير. ومن الخطأ أن يحوّل الإنسان نعمة الاستقرار المؤقت إلى عقيدة في البقاء؛ فالدنيا مأهولةٌ لكي يُعمل فيها، لا لكي يُخلد إليها، وممهدةٌ للعبور لا للإقامة الأبدية. وما أكثر الذين ظنوا أن امتلاك قطعةٍ من الأرض يمنحهم الدوام، ثم امتلكتهم الأرض واحتوت أجسادهم، وبقي ما قدّموا يتجه نحو يوم الحساب.

وَالْجِبَالُ أَوْتَادٌ: الرُّسُخُ الَّذِي يَحْرُسُ الْمَهْدَ

﴿وَالْجِبَالُ أَوْتَادٌ﴾

تقابل الجبال امتداد الأرض بهيبتها وارتفاعها ورسوخها، ويختار القرآن لها صورة الأوتاد، بما توحى به من تثبيتٍ وإحكام وارتباط بما وراء الجزء الظاهر للعين. فالإنسان يرى من الوتد رأسه، بينما تكمن وظيفته في الجزء الذي غاب عنه؛ وهكذا يعلم القرآن ألا يحصر حقيقة الأشياء في ظاهرها، فإغيب عن الحس قد يكون هو الذي يحمل سرّ التوازن.

والجبال في الوعي الإنساني رمزٌ للقوة والثبات، حتى يقال عن الإنسان الصابر إنه جبل، ومع ذلك فإن هذه الكُتَل الراسخة ليست خالدةً، وستصبح يوم الفصل سراباً. وهنا يضع القرآن مقياساً حاسماً لكل قوة أرضية: إذا كانت الجبال نفسها ستُنسف وتُسير، فما وزن سلطانٍ يظن صاحبه أنه لا يزول؟ وما قدر حصنٍ يركن إليه ظالم، أو مالٍ يتقوى به متجبر، أو مؤسسة بشرية يتعامل أصحابها معها كأنها أرسخ من قوانين الله؟ إن من يقرأ مصير الجبال لا يخاف كثيراً من جبال القوة المصطنعة؛ لأنه يعرف أن الرسوخ المطلق لله وحده، وأن كل ما سواه قائمٌ بأمره، ينتهي إذا جاء أمره.

وفي اجتماع المهاد والأوتاد تناسقٌ بالغ، فالمهاد يوحى بالرفق، والأوتاد توحى بالقوة، وكأن الحياة لا تستقيم إلا بلطفٍ يحملها وقوةٍ تحفظها. والنعمة ليست دائماً رخاءً ليناً؛ فقد تأتي في صورة جبلٍ صلب يحرس التوازن، كما تأتي في صورة أرضٍ ممهدة تستقبل الخطى. وكذلك تدبير الله في حياة الإنسان: منه ما يجيء ليناً فتأنس به النفس، ومنه ما يجيء شديداً فتألم، وقد يكون في الشدة تثبيتٌ لا تراه، وفي المنع وتدٌ يحفظ حياتك من انهيار لم تدركه.

وَحَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا: الْإِنْسَانُ لَا يَكْتَمِلُ فِي وَحْشَةِ الْفَرْدِيَّةِ

﴿وَحَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾

من الأرض والجبال تنتقل الآيات إلى الإنسان نفسه، من المسكن إلى الساكن، ومن المسرح إلى الكائن الذي سيسأل عما صنع عليه. خلق الله البشر ذكوراً وإناثاً، وجعل في الزوجية سبيلاً لبقاء النوع، وسكناً تتألف فيه النفوس، وتذكيراً بأن الإنسان لم يُخلق مكتفياً بنفسه. إنه يبدأ حياته محتاجاً، ويستمر محتاجاً، ويقيم كثيراً من عمره على تبادل الرحمة والمنفعة؛ فلا يليق بمن بُني وجوده على الافتقار أن يتقمص وهم الاستغناء.

والزوجية آيةً في أن الاختلاف لا يعني التناقض بالضرورة؛ فقد يكون الاختلاف هو الطريق إلى التكامل، ويكون التنوع جزءاً من حكمة البناء. لم يجعل الله الحياة نسخةً واحدةً مكررة، بل أقامها على تنوعٍ تلتقي أطرافه في وحدة الغاية، كما تتجاوز ألوان الحديقة فلا يطردها أحدها الآخر، بل يزداد المشهد بها جمالاً. لكن الإنسان حين يفقد ميزان الوحي يحول التنوع إلى صراع، والتكامل إلى استعلاء، والسكن إلى ساحةٍ للتسلط؛ فيفسد بأخلاقه ما جعله الله آيةً على رحمته.

وقوله: ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ يردُّ الإنسان إلى أصله الأول، قبل الألقاب والحدود والثروات والمناصب. كل الفوارق التي يتضخم بها البشر جاءت بعد الخلق، أما البداية فواحدة: مخلوقون لا خالقون، محتاجون لا مستغنون، محمولون بالنعمة لا قائمون بذواتنا. وإذا استقر هذا المعنى في القلب، انكسرت مادة الكبر؛ لأن المتكبر لا يرى من نفسه إلا ما جمعه بعد وجوده، وينسى أنه لم يختَر أصل وجوده، ولا زمان مولده، ولا صورته الأولى، ولا أكثر الأسباب التي رفعته بين الناس.

والذي خلق البشر أزواجاً قادراً على أن يعيد أفرادهم بعد الموت؛ فاخلق المشهود لا يترك للإنكار إلا عناداً لا حجة له. إن كل ولادةٍ إعلانٌ متجدد عن القدرة، وكل إنسان يأتي إلى العالم بعد أن لم يكن يذكر بأن الإيجاد ليس ممتنعاً على الله. فلماذا يقبل العقل خروج الحياة أول مرة، ثم يستغرب رجوعها بأمر من أوجدتها؟

النَّوْمُ سُبَاتًا: الْمَوْتُ الصَّغِيرُ الَّذِي نَعْبُرُهُ كُلَّ لَيْلَةٍ

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾

السُّبات هو الانقطاع والراحة؛ ففي النوم ينقطع الإنسان عن كثيرٍ من حركته وشعوره وتديره، ويلقي أثقال يومه، وتنسحب إرادته من إدارة الجسد، ثم يستيقظ وكأن الحياة رُدَّت إليه من جديد. وما أعجب الإنسان: يستسلم كل ليلةٍ لحالةٍ تشبه الموت من وجهه، ثم يستيقظ فلا يرى في ذلك برهاناً على ضعفه ولا تذكيراً ببعثه! يسلم وعيه لله ساعاتٍ، ويغيب عن مملكته الصغيرة، فلا يحرس قلبه بإرادته، ولا يضبط أنفاسه بوعيه، ثم يُردُّ إليه إدراكه في الصباح من غير حولٍ منه ولا قوة.

إن النوم درسٌ يوميٌّ في سقوط وهم السيطرة. قد يملك الإنسان قصراً، ويصدر الأوامر، ويهاب الناس حضوره، لكنه حين يغلبه النعاس لا يستطيع أن يحتفظ بوعيه، ويصير جسداً مستلقياً لا يدري ما يجري حوله. فن كان عاجزاً عن دفع النوم، كيف يزعم الاستقلال عن خالقه؟ ومن لا يستطيع أن يسترد وعيه بنفسه، كيف ينكر على الله أن يرد إليه حياته يوم البعث؟

وفي النوم رحمةٌ لا يدرك مقدارها إلا من حُرِّمها؛ إنه انقطاعٌ يحمي النفس من استمرار التوتر، وسترٌ مؤقت لجراح الوعي، وتجديدٌ للجسد بعد استهلاك النهار. ولو ظل الإنسان يقظاً دائماً لأهلكه حضوره المتصل مع همومه، فجعل الله الغياب الجزئي رحمةً، وكان النفس تحتاج في كل يوم إلى أن تضع عالمها جانباً وتعود ضعيفةً إلى عناية ربها.

وفي هذا المعنى تربيةٌ على أن الانقطاع ليس دائماً خسارة؛ فقد يكون السكون إعداداً لحركةٍ أنضج، وقد يكون التوقف استرداداً لما بددته الطريق، وقد يحسب المرء أن قيمة حياته في نشاطٍ لا ينقطع، حتى يتحول العمل عنده إلى هروب من نفسه. لكن الله الذي جعل النهار

معاشاً جعل النوم سباتاً؛ فلكل منهما حقه، والحكمة ليست في حركة دائمة ولا في سكون دائم، بل في الانسجام مع الميزان الذي أقامه الخالق.

والنوم صورة قريبة توقظ معنى البعث: تغيب ثم تعود، وينقطع شعورك ثم يُرد إليك، وينقضي عالمٌ كاملٌ من الأحلام عند فتح العين. كذلك سيستيقظ الناس من قبورهم، ويشعرون بقصر ما لبثوا، ويرون الدنيا التي ملأت حواسهم كأنها حلم انطوى. وما الموت في قدرة الله إلا نوم أطول يعقبه الاستيقاظ حين ينادي المنادي.

الليل لباساً: سترُ العالمِ وراحةُ الروح

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾

يشبه الليل اللباس في ستره وإحاطته وسكون الحركة داخله؛ فهو لا يأتي فراغاً من الضوء فحسب، بل يأتي برداءً يلفُّ العالم، ويخفّض ضجيجه، ويبعد المخلوقات إلى شيءٍ من السكينة. وإذا كان لباس الجسد يستر ويحمي، فإن لباس الليل يستر حركة الحياة لتستريح، ويمنح الروح مساحةً لا توفرها فوضى النهار.

وفي وصف الليل باللباس معنى القرب؛ فنحن لا نشاهد الليل من بعيد، بل يدخل علينا ويحيط بنا كما يحيط الثوب بالجسد. إنه آيةٌ كونيةٌ تلبسها كل يوم من غير أن نشعر، ونعمةٌ تتجاوز البصر إلى أعصابنا وأجسادنا وأرواحنا. ولولا تعاقب الظلام والنور لفقدت الحياة إيقاعها، ولما عرف الإنسان متى يطوي عمله ومتى يستأنفه.

ولليل في حياة المؤمن سرٌّ آخر؛ ففي الوقت الذي تهدأ فيه أعين الناس، يمكن للقلب أن يستيقظ. فما جعل الليل لباساً للجسد فحسب، بل قد يصير خلوةً للروح، تتخفف فيها من نظر

الخلق وضوضائهم، وتقف بين يدي الله بلا جمهور. كم من قلبٍ أصلحه الله في ظلمة الليل، وكم من دمعةٍ لم يرها بشر كانت عند الله أصدق من خطب النهار كلها! والليل الذي يستر الأجساد يكشف أحياناً حقائق الأرواح؛ لأن الإنسان حين ينفرد بربه يسقط عنه كثيرٌ مما يرتديه أمام الناس.

لكن الليل، مهما امتد، لا يملك أن يمنع الفجر؛ وفي هذا عزاءٌ لكل مكروب. فالظلمة مرحلةٌ داخل نظامٍ أكبر، وليست سلطةً مطلقة. وإذا كان الله قد جعل للكون صباحاً بعد كل ليل، فقد جعل لأقداره أبواباً من الفرج، وإن غابت عن العين ساعة الشدة. لا يعني ذلك أن كل ألم ينتهي في الدنيا بالصورة التي نريدها، ولكن المؤمن يعلم أن الليل الأكبر للظلم والغربة والموت سينتهي بصباح البعث والعدل واللقاء.

النَّهَارُ مَعَاشًا: الزَّمَنُ الَّذِي يُكْتَبُ فِيهِ الْعَمَلُ

﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾

إذا كان الليل لباساً، فالنهار ميدانٌ للحركة والسعي وابتغاء الرزق. أضاء الله للإنسان زمن العمل، وجعل الضوء رسولاً يفتح له معالم الطريق، فتخرج الحياة من سكونها، وتحرك الأقدام في الأرض، وتبنى البيوت، وتُزرع الحقول، وتنتظم مصالح العباد. وهكذا يجمع النظام الإلهي بين الاستراحة والسعي؛ فلا النوم غاية الوجود، ولا العمل يستحق أن يلتهم الإنسان كله.

ووصف النهار بأنه ﴿مَعَاشًا﴾ يذكّر بأن الرزق ليس مالاً يُجمع فقط، بل حياةٌ تقوم بالتبادل والتعاون والبذل. فالخبز الذي يصل إلى مائدة إنسان مرَّ بأيدي كثيرة، والثوب الذي يستره شارك في صنعه من لم يعرفهم، والبيت الذي يسكنه اجتمعت فيه علومٌ وأعمالٌ متراكمة. ولو

تأمل المرء في أبسط حاجاته لرأى أنه يعيش بفضل الله ثم بآثار جهود بشرٍ كثيرين؛ فلا معنى بعد ذلك لغرور من يظن أنه صنع نفسه منفردًا.

والنهار وعاءٌ للأعمال كما هو وعاءٌ للأرزاق. ففي ضوئه يكتب الإنسان سطور مصيره، وإن ظن أنه لا يفعل سوى شؤونٍ صغيرة متكررة. نظرةٌ هنا، وكلمةٌ هناك، وحقٌّ يؤدي أو يؤخر، ورحمةٌ تبذل أو تُمنع؛ أشياء تبدو متناثرة في يومٍ عادي، لكنها تُجمع في الكتاب الذي سيحده صاحبه منشورًا. ولهذا فإن أعظم خسارة ليست أن يمر يومٌ بلا مكسبٍ دنيوي، بل أن يمر بلا قربٍ من الله، أو يخرج الإنسان منه وقد ازداد حمله ولم يزد بصيرة.

وفي الآيتين توازنٌ يحمي الإنسان من طرفين: من الكسل الذي يعطل عمارة الحياة، ومن عبادة العمل التي تستنزف الروح. فمن حق الجسد أن يسبت، ومن حق الإنسان أن يسعى في معاشه، ومن حق القلب فوق ذلك كله ألا ينسى لماذا يستريح ولماذا يعمل. إن العمل الذي ينفصل عن الغاية يصير دورانًا متعبًا، والراحة التي تنفصل عن المسؤولية تصير نحولاً؛ أما المؤمن فينام ليستعين على طاعة، ويسعى ليعف نفسه ويقيم حقًا ويعمر الأرض، فتدخل عاداته كلها في معنى العبودية.

سَبْعًا شِدَادًا: الْبِنَاءُ الَّذِي يَعْلُو الْإِنْسَانَ

﴿وَبَيْنَنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾

بعد الأرض وما عليها، ترفع السورة أبصارنا إلى فوق: ﴿وَبَيْنَنَا فَوْقَكُمْ﴾. والسماء في الحسب سقْفٌ مرفوع، وفي التعبير بناءٌ محكم، سبع سماواتٍ قوية الخلق، متماسكة بأمر الله، لا يعترى نظامها الوهن الذي يصيب بناء البشر. إن الإنسان يعيش بين مهادٍ تحته وبناءٍ فوقه، محاطًا بالناية من كل جهة، لكنه قد يغفل عن هذا كله وهو منشغلٌ بسقف بيته الصغير.

ووصف السماوات بالشدة يوقظ معنى القوة والإحكام؛ فهذا الوجود ليس فوضى عابرةً تجتعت بلا تقدير، بل بناءً يشهد نظامه على علم الباني وقدرته. وكلما اتسعت معرفة الإنسان بأبعاد الكون وأجرامه واتساق قوانينه، لم يزدد الكون افتقاراً إلى الخالق، بل انكشفت أمامه طبقاتٌ أعمق من الإتقان. إن القانون لا يخلق نفسه، والنظام لا يفسر أصل وجوده، ووصف كيفية حركة الأشياء لا يغني عن السؤال: من أوجدها وقدر لها هذه السنن؟

وفي قوله: ﴿فَوَقَّكُمْ﴾ ردُّ رقيقٍ على كبر الإنسان؛ فهما رفع بنيانه، يبقى تحت بناء الله، ومهما اتسعت معرفته، يبقى محاطاً بملكوتٍ لا يبلغ أطرافه. إنه يستطيع أن يدرس الآفاق، لكنه لا يخرج عن كونه مخلوقاً داخلها؛ يستطيع أن يكتشف بعض السنن، لكنه لا يمنحها سلطانها ولا يضمن استمرارها لحظةً واحدة. والعلم الحق لا يقود إلى الغرور، بل إلى تواضع أعمق؛ لأن كل بابٍ يفتحه الإنسان يكشف له أبواباً أوسع من المجهول.

وإذا كان الذي بنى سبعاً شداداً قادراً على هذا الخلق العظيم، فكيف يستكثر عليه المكذب أن يعيد جسداً صغيراً؟ إن استبعاد البعث بعد النظر في السماوات خللٌ في القياس؛ فالقدرة التي لا يعجزها بناء الكون لا يعجزها جمع العظام. غير أن القرآن لا يقيس أفعال الله بقياس العجز البشري؛ فالأول والآخر كلاهما على الله يسير، وإنما يواجه الإنسان بما يشاهده ليزيل الوهم الذي أقامه قصورُ قدرته هو.

سِرَاجًا وَهَّاجًا: النُّورُ الَّذِي لَا تَمْلِكُ إِيقَادُهُ

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾

السراج الوهاج هو الشمس بما فيها من ضياءٍ وحرارة، وقد جعلها الله سبباً في انتظام كثيرٍ من شؤون الحياة. إنها تشرق كل يوم بلا يدٍ بشرية توقدها، وترسل نورها إلى الغني والفقير،

وإلى من شكر ومن كفر، ولا يملك أحد أن يحتكر شعاعاً منها أو يؤخر شروقها. ومن هذه النعمة الكونية يتعلم الإنسان أن أعظم ما تقوم عليه حياته لم يدفع ثمنه ولم يصنعه؛ بل سبقه فضل الله إليه.

ووصفها بالسراج يقرّبها إلى الإدراك، ووصفها بالوهاج يكشف شدة توقدها؛ فهي ليست مصباحاً ساكناً في سقف العالم، بل آية طاقة وقوة، أودع الله فيها من أسباب النفع ما تقوم به حياة الأرض. وكيفي أن يتأمل الإنسان علاقته بالشمس ليدرك رقة الميزان الذي يعيش داخله: يقرب منها ما ينفعه، ويصل إليه من حرارتها وضوئها ما يلائم حياته، في نطاقٍ مقدّر لا يملكه ولا يديره.

ومع أن الشمس عظيمةٌ في الحس، فإنها مخلوقة؛ تشرق بأمر، وتجري إلى أجل، وسيأتي عليها يومٌ يتغير فيه نظامها. ومن هنا يحمي التوحيد الإنسان من عبادة ما يبهره؛ فكل نورٍ يراه ليس مصدر النور من ذاته، وكل قوةٍ تدهشه خاضعةٌ لقوة الله. إن القلب قد يعبد الشمس بصورتها القديمة، وقد يعبدها في صورٍ حديثة: يعبد الظهور والقوة والنجومية والتأثير، ويخني أمام كل ما يلمع. لكن القرآن يردُّ البصر من السراج إلى من جعله، ومن النعمة إلى المنعم، كي لا يتوقف الوعي عند الوسطة وينسى الخالق.

الماءُ الثَّجَّاجُ: حِينَ تَنْزِلُ الْحَيَاةُ مِنَ السَّمَاءِ

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾

ينزل الماء من السحب المحملة به، غزيراً متتابعاً، فتحيها به الأرض التي كانت قبل نزوله جامدةً لا تبدو فيها علامة الحياة. ولفظ ﴿ثَجَّاجًا﴾ يحمل في جرسه معنى الانصباب والكثرة، حتى يكاد السامع يشهد تدفق المطر ويرى الأرض وهي تتلقاه. إنها صورةٌ من

الرحمة النازلة، لا تأتي من مخازن البشر، ولا يستطيعون أن يخلقوا قطرة واحدة من حقيقتها، وإن استطاعوا أن يجمعوا الماء ويوجهوه وينتفعوا بسننه.

والقرآن يكثر من وصل البعث بإحياء الأرض بعد موتها؛ لأن المشهد يقع أمام العين مراراً: ترابٌ هامد يبتل، ثم ينشق عن نبتة، وما كان غائباً تحت السطح يخرج لونا وطعماً ورائحة. فإذا كان الإنسان يقبل أن تعود الحياة إلى الأرض بعد يباسها، فلماذا يستبعد أن يحيي الله الأجساد بعد فنائها؟ إن البعث ليس فكرةً بلا نظير في العالم المشهود، بل الطبيعة كلها تعرض نماذج مصغرة من الانتقال بين الخفاء والظهور، والموت والحياة، والسكون والحركة.

والماء يعلمنا أن الحياة قد تكون كامنة خلف هيئة الموت. الأرض الجرداء لا تخلو بالضرورة من إمكان الإزهار، والبذرة المدفونة ليست جثةً ضائعة، والمرحلة التي لا يظهر فيها أثر العمل ليست دليلاً على انعدام الثمرة. كم من روح ظن الناس أنها انتهت، فنزل عليها ماء الهداية فأورقت! وكم من أمة غطاها اليأس، ثم أذن الله لفكرتها الحية أن تخرج من الأعماق! غير أن هذه الإشارات تبقى تابعةً للمعنى الأصلي: الماء آيةٌ مادية على القدرة والرحمة، وإحياء الأرض شاهدٌ قريب على إمكان البعث.

وفي إنزال المطر تذكيراً بأن أسباب الرزق موزعة بين السماء والأرض، وأن الإنسان مهما بلغ في الإدارة لا يستقل بالنتيجة. يحث الأرض ويلقي الحب، لكنه لا يخلق في الحبة سرَّ الانشقاق، ولا يأمر السحابة أن تمطر، ولا يصنع للشمس ضوءها، ولا يضع في الثمرة طعمها. إنه يعمل داخل شبكةٍ من العطايا السابقة على عمله، ثم ينسب النجاح إلى نفسه وحدها! وما أكثر ما يحو الغرورُ اسمَ المنعم من قصة النعمة.

حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا: مِنَ الْقَطْرِ إِلَى الْحَدِيقَةِ
﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۖ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾

يذكر الله الغاية القريبة من إنزال الماء: أن يخرج به الحب الذي يقتات به الإنسان، والنبات الذي تنتفع به المخلوقات، والجنات الملتفة بالأشجار، المتشابكة الأغصان، الغزيرة الظلال والثمار. ومن قطرة تنزل من السماء إلى حبة تنشق في الأرض إلى حديقة تلتف أغصانها، تمتد أمام القلب سلسلة من التحولات التي لا يصنع الإنسان حقيقتها، وإن كان يشهدها وينتفع بها.

ولفظ ﴿نُخْرِجَ﴾ ذو دلالة عميقة في سياق البعث؛ فالله يخرج الحي من موضع لا يرى الإنسان فيه إلا التراب، وسيخرج الناس من قبورهم كما أخرج الحب والنبات. إن الخروج قانون من قوانين القدرة: يخرج الجنين من ظلمات الرحم، والنبات من ظلمة الأرض، والفجر من ظلمة الليل، وسيخرج الإنسان من قبره إلى يوم الفصل. وما نظنه نهاية قد يكون في تقدير الله غطاءً لبدء طور آخر.

وتنتقل الصورة من الضروري إلى الجميل: من ﴿حَبًّا﴾ تقوم به الحياة، إلى ﴿جَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ تبهج البصر وتمنح الظل والثمر والجمال. فالله لم يجعل العالم مخزنًا جافًا للضرورات، بل نشر فيه الزينة واللون والرائحة والتنوع؛ ومن هنا كان الجمال جزءًا من شهادة الكون على كرم الخالق. إن الثمرة لا تؤدي وظيفة الغذاء لحسب، بل تأتي في لونٍ وشكلٍ وطعمٍ يفتح أبواب السرور، والحديقة ليست تجمعًا وظيفيًا للأشجار، بل مشهدٌ يريح النفس قبل أن تمتد اليد إلى ثمره.

وفي الجنات الملتفة تلوح من بعيد جنات الآخرة التي ستذكرها السورة في جزاء المتقين؛ فكأن جنات الأرض إشاراتٌ صغيرة إلى النعم الأكبر، تذكّر الإنسان بأن الذي أودع في الدنيا هذا الجمال العابر قادرٌ على أن ينشئ داراً لا يذبل نعيمها. غير أن الفرق عظيم: جنات الدنيا يهددها الجفاف والآفة والزوال، أما جنات الآخرة فجزاءٌ مقيم، لا يمسه فناء ولا يختلط صفوها بألم.

وتحمل هذه الآيات كلها سؤالاً واحداً مستتراً خلف تنوع المشاهد: من جعل هذا؟ من مهد الأرض، وثبت الجبال، وخلق الإنسان، وقدر النوم، وألبس العالم الليل، وأضاء النهار، وبنى السماوات، وأوقد الشمس، وأنزل الماء، وأخرج الحقول والجنات؟ والجواب يتكرر في الأفعال بصيغة العظمة: ﴿جَعَلْنَا﴾، ﴿خَلَقْنَا كُرْ﴾، ﴿بَنَيْنَا﴾، ﴿أَنْزَلْنَا﴾، ﴿لَنُخْرِجَ﴾. إنه ردٌّ على وهم أن الكون قائمٌ بنفسه، وأن النعم بلا منعم، وأن النظام بلا مدبر.

وليس المقصود أن يقف الإنسان عند الانبهار بجمال الكون، بل أن يعبر منه إلى واجب العبودية؛ فكل نعمةٍ تحمل في باطنها سؤالاً أخلاقياً: ماذا فعلت بها؟ الأرض المهادة: أأقمت عليها العدل أم ملأتها فساداً؟ الجبال الأوتاد: هل تعلمت منها الثبات على الحق؟ الزوجية: هل حفظتها بالسكن والرحمة أم حولتها إلى ظلم؟ النوم والليل: هل جعلنا منك إنساناً أصفى وأقوى على الطاعة؟ النهار: في أي شيء أنفقت ساعاتك؟ السماء والشمس والماء والجنات: هل قادتكم إلى معرفة الله أم زادتكم غفلةً بما منحتكم من متاع؟

إن النعمة ليست امتيازاً مجانياً منفصلاً عن المسؤولية؛ فكل ما تُخَرِّج للإنسان سيدخل في حساب علاقته بربه وبالخلق. وليس السؤال يوم القيامة عن وجود النعم فقط، بل عن موضعها من القلب والسلوك: هل أورثت شكراً أم استعلاء؟ هل استعملت في الخير أم

صارت أدواتِ للبطش والاستئثار؟ وهنا يتصل كتاب الكون بكتاب العمل؛ فالسما لا تشهد فقط على قدرة الله، بل تجعل بحود الإنسان أشد قبحاً، والأرض لا تحمل قدميه فحسب، بل تحفظ أثرهما إلى أن تحدّث أخبارها.

وهكذا تقيم الآيات العشر محكمة الدليل قبل أن تعرض محكمة الجزاء؛ فما من مشهدٍ حول الإنسان إلا ويقول له: إن الذي أحكم هذا كله لم يخلقك سدى، وإن القدرة التي أنشأت هذا النظام لا يعجزها بعثك، وإن الحكمة التي وضعت كل شيء في موضعه لا تترك الخير والشر بلا فصل. لقد وُضع المهاد، وثبتت الأوتاد، وانتظم الليل والنهار، وبنيت السماوات، ووُهبَت أسباب الحياة؛ فلا بد أن لهذا الإعداد غايةً أكبر من رحلةٍ قصيرة تنتهي إلى العدم. وعند هذه النقطة تكتمل مقدمات المشهد: الكون معدٌّ، والحياة جاريةٌ بتقدير، والإنسان مخلوقٌ مكلفٌ، والبراهين تحيط به من تحته ومن فوقه ومن داخله. ثم يأتي الإعلان الذي كانت السورة تمهد له منذ سؤالها الأول: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾. فذلك اليوم ليس حادثةً طارئةً تقع خارج نظام الكون، بل هو غايته الأخلاقية، والموعِد الذي تتجمع عنده طرق التاريخ كلها؛ هناك ينتهي زمن المهاد، وتحرك الأوتاد، وينطفئ سراج الدنيا، ويقف الإنسان أمام النبأ العظيم الذي كان يمرُّ بآياته كل يوم، ولكنه لم يكن يعلم أن الكون بأكمله كان يشير إليه.

الفصل الثالث

يَوْمَ الْقَصْرِ: حِينَ يَنْتَبِيْ اخْتِلَاطُ الْأَشْيَاءِ

﴿إِنَّ يَوْمَ الْقَصْرِ كَانَ مِيقَاتًا ۖ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۚ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ۚ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾

بعد أن عرضت السورة شواهد القدرة في الأرض والجبال والإنسان والليل والنهار والسماء والشمس والمطر والنبات، جاء التقرير الذي تتجه إليه تلك الشواهد جميعاً: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْقَصْرِ كَانَ مِيقَاتًا﴾. لم يكن الكون المعروض في الآيات السابقة مشهداً للجمال وحده، بل مقدمة عقلية ووجدانية لإثبات أن الخلق المحكم لا ينتهي إلى العبث، وأن الحياة التي جرت بهذا القدر من التقدير لا تترك بلا غاية، وأن الإنسان الذي مُنح الوعي والاختيار لا يتساوى في نهايته مع كائن لم يُكلّف ولم يُسأل.

لقد أعدت الأرض مهاداً، وثبتت الجبال أوتاداً، ونُظِمَ الزمن ليلاً ونهاراً، وبنيت السماء بناءً شديداً؛ ثم ها هي السورة تعلن أن وراء هذا النظام موعداً لا يتخلف. فكما أن للشمس وقتاً في الشروق والغروب، وللطر مواسم، وللنوم واليقظة تعاقباً، فإن للتاريخ الإنساني نفسه ميقاتاً ينتهي إليه. ليست القيامة فوضى تقع فجأة في ملك غفل مالكة عنه، تعالى الله عن ذلك، وإنما هي موعدٌ مقدرٌ في العلم الإلهي، يأتي حين تبلغ الدنيا أجلها الذي كُتب لها.

إِنَّ يَوْمَ الْقَصْرِ كَانَ مِيقَاتًا

جاءت الآية بـ ﴿إِنَّ﴾ لتثبت الحقيقة التي اختلفوا فيها، ثم اختارت للقيامة اسماً يكشف جوهرها الأخلاقي: ﴿يَوْمَ الْقَصَلِ﴾. إنه ليس يوم البعث فحسب، ولا يوم اجتماع الخلائق فقط، بل اليوم الذي يُفصل فيه بين الحق والباطل، وبين المؤمن والكافر، وبين الصادق والخادع، وبين دعوى اللسان وحقيقة القلب، وبين ما أظهره الإنسان للناس وما أخفاه عنهم. إنه يوم استرداد الأسماء الصحيحة بعد أن عبث بها أهواء الدنيا.

في الحياة تختلط الأشياء: قد يسمى الجبن حكمةً، والنفاق مرونةً، والجشع طموحاً، والظلم حزمًا، والسكوت عن الباطل حياداً؛ وقد يُحاصر الصادق حتى يبدو متهمًا، ويملك الكاذب منابر كثيرة حتى يبدو صاحب الحقيقة. إن اللغة نفسها قد تُستعمل ستاراً لتجميل القبح، وتُبنى حول الجريمة رواياتٌ أنيقة تخفي دماء ضحاياها. لكن يوم الفصل لا يعترف بالأسماء التي اخترعها الناس لأفعالهم؛ هناك يعود الظلم ظلمات، والخيانة خيانةً، والإيمان إيماناً، والتقوى تقوى، ويظهر كل شيء في صورته التي يعلمها الله.

يفصل الله يومئذ بين الخصوم الذين عجزت محاكم الأرض عن إنصافهم، أو حالت القوة دون سماع أصواتهم. كم من حقٍّ دُفن لأن صاحبه ضعيف، وكم من مظلومٍ مات ولم يسمع اعتذاراً، وكم من طاغيةٍ خرج من الدنيا محاطاً بالمدح كأنه لم يسفك دمًا ولم يهتك حرمة! لو كانت الدنيا هي المحكمة الأخيرة لكان في الوجود جرحٌ لا يندمل، ولصار انتصار القوة على الحقيقة قانوناً نهائياً؛ لكن يوم الفصل يعلن أن الله لم يسلم مصائر البشر إلى ذاكرة التاريخ الناقصة، ولا إلى أقلام المنتصرين، وإنما حفظ كل شيء لميزانٍ لا يميل.

يفصل ذلك اليوم أيضاً بين الإنسان وأوهامه؛ ففي الدنيا قد يعيش المرء طويلاً داخل صورةٍ صنعها لنفسه، يظن أنه محسنٌ لأنه قارن نفسه بمن هو أسوأ منه، أو يعتقد أنه بريء

لأنه نجح في تبرير أخطائه، أو يتوهم أن قبول الناس دليل قبول الله. لكن بين يدي الله تسقط المقارنات المخادعة، ويقف الإنسان أمام عمله مجرداً من الشروح التي كان يحيط بها نفسه. هنالك لا تنفع البلاغة التي زينت الباطل، لأن الأعضاء ستشهد، والكاتب سينطق، والسرائر ستبلى.

وفي وصفه بيوم الفصل عزاءً عظيم لأهل الحق؛ فليس مطلوباً منهم أن يروا كل عدل الله متحققاً في الدنيا حتى يثبتوا، وإنما أن يعملوا للحق وهم موقنون بأن الحكم الأخير لم يصدر بعد. قد يخسر المؤمن جولةً، ويساء فهمه، ويحرم ثمرة عاجلة، لكنه لا يعيش داخل زمنٍ مغلق؛ إن أمامه يوماً تنكشف فيه المقادير، ويرى فيه الصبر كما هو، لا كما وصفه الساكرون. وهذا اليقين لا يدعوه إلى السلبية أو ترك مقاومة الظلم، بل يمنحه قوةً لا تعتمد على ضمان النتيجة العاجلة؛ فيقول الحق لأنه حق، لا لأنه واثق من تصفيق الناس له.

وقوله: ﴿كَانَ مِيقَاتًا﴾ يحمل معنى التحديد السابق والثبوت في علم الله؛ فكأن ذلك اليوم حاضرٌ في التقدير الإلهي، وإن كان غيباً عن أعين البشر. ولا يعني «كان» أن الميقات مضى، بل أنه ثابتٌ مقررٌ لا يُستأنف له قرار، ولا يعرض له تبديل. إن الناس يعيشون أيامهم وهم يظنون أن المستقبل مساحةٌ مفتوحة لكل الاحتمالات، لكن في قلب هذا المستقبل موعداً واحداً لا يخضع لاحتمالاتهم: موعد الوقوف بين يدي الله.

والميقات ليس زمناً تقريبياً، بل موعدٌ منضبط لا يتقدم ولا يتأخر. ربما يتأخر العدل في نظر الإنسان حتى يظن أن الظالم قد أفلت، لكن التأخر إنما يُقاس بعمر البشر المحدود، أما في تدبير الله فكل شيء يأتي في وقته الذي لا يختل. والآخرة لا تتأخر؛ نحن الذين نستعجل

لأن أعمارنا قصيرة، ونقيس حركة الحكمة الإلهية بنبض قلوبنا المتسارع. أما رب الزمن فقد جعل لكل شيء أجلاً، ويعلم متى تنتهي فرصة الاختيار ويبدأ يوم الجزاء.

إن الإيمان بالميقات يحرر الإنسان من وهم المفاجأة المطلقة؛ فالقيامة ليست مجهولة الوجود، وإن خفي وقتها. المجهول هو «متى»، أما «أنها آتية» فحقيقةٌ جاء بها خبر الله، وأقام عليها دلائل الخلق. ومن رحمة الله أنه أخفى الساعة وأعلن وقوعها؛ فلو عُرِف وقتها لاتخذها كثيرون موعداً مؤجلاً للتوبة، لكن خفاءها يجعل العمر كله مساحة استعداد. إنك لا تعرف متى تنتهي رحلتك الشخصية إلى ذلك اليوم، ولذلك لا يليق بك أن تجعل التوبة مشروعةً مؤجلاً إلى زمنٍ لا تملك وصولك إليه.

النَّفْخُ فِي الصُّورِ: الصَّوْتُ الَّذِي يُنْبِئُ صَحْبَ التَّارِيخِ

﴿يَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾

تنتقل الآية من التقرير إلى المشهد: هناك نفخةٌ في الصور بأمر الله، فإذا العالم الذي اعتاد الناس ثباته يدخل طوراً جديداً، وإذا الأموات يخرجون من قبورهم، وإذا تاريخ البشرية كله يتحول إلى حركةٍ متدفقة نحو الموقف العظيم. إن النفخ في الصور ليس مجرد إعلان، بل حدٌّ يفصل بين نظامين: نظام الدنيا الذي عرفه البشر، ونظام الآخرة الذي طالما سمعوا خبره ولم يشاهدوه.

كم من أصواتٍ ملأت التاريخ ثم خفتت: هتافات الملوك، وضحج المعارك، وخطب المتجبرين، وبكاء المنكسرين، وضحكات الذين ظنوا أنهم خالدون. كل تلك الأصوات سيطوئها صوتٌ واحدٌ يقع بأمر الله، فلا يبقى للسلطان الأرضي أمرٌ، ولا لجبروت البشر صدى. لقد طالما نفخ المتكبرون في صور مجدهم المصنوع، وجمعوا الناس حول أسمائهم،

لكن النفخة الحقيقية ستكشف أن المجد الذي لا يتصل بالله دخانٌ يتبدد، وأن الصوت الذي يغير مصير الوجود ليس صوت بشر.

وتقول الآية: ﴿فَتَأْتُونَ﴾؛ خطابٌ مباشرٌ يزيل المسافة بين القارئ والمشهد. لم تقل: فيأتون، كأن الحديث عن آخرين، بل أدخلتنا في الموكب: أنتم تأتون، وكل من يسمع الآية داخلٌ في هذا الخطاب، شاء أن يتدبر أم أعرض. إن القيامة ليست حكايةً عن أمم غابرة، ولا عقوبةً موجهةً إلى المكذبين الأوائل وحدهم؛ إنها موعدي وموعديكم، وخطواتنا جميعاً تتجه إليها وإن كنا الآن جالسين في أمان.

ويأتي الناس ﴿أَفْوَاجًا﴾؛ جماعاتٍ تتابع وتزدحم، كل أمةٍ مع أمتها، وكل صنفٍ مع من يناسبه، وقد خرجوا من تفرد قبورهم إلى اجتماع العرض. وفي الصورة مفارقةٌ مؤثرة: يدخل الإنسان قبره منفرداً، ثم يُبعث داخل أفواج لا يحصيها إلا الله، ومع ذلك لا تذوب مسؤوليته في الجماعة. في الدنيا قد يختبئ المرء خلف الجمهور، ويقول: فعل الناس ففعلت، وسكنوا فسكنْتُ، ومالوا فملت؛ أما يوم القيامة فيأتي داخل فوج، لكنه يقف مسؤولاً عن نفسه.

إن الجماعة في الدنيا قد تكون عوناً على الحق، وقد تكون مخدراً للضمير. يشعر الإنسان بالأمان حين يشارك الكثيرين خطأهم، وكأن كثرة الفاعلين تحول الباطل إلى صواب؛ لكن الأفواج يوم القيامة تكشف أن كثرة السالكين لا تضمن سلامة الطريق. ما قيمة أن تكون ضمن جمهورٍ عريض إذا كان الفوج كله يتجه إلى الخسران؟ وما ضرر أن تمشي في الحق وحيداً إذا كنت ستجد في النهاية موكب الصادقين؟ إن المقياس ليس عدد الواقفين حولك، بل وجهة الطريق التي تتفون عليها.

وكل الفروق التي بالغ الناس في تعظيمها ستتضاءل في ذلك الجمع. يخرج الملوك ومن حكموا، والسادة ومن خدموا، والأغنياء ومن حُرِّموا، وكلهم جاءوا إلى الموعد بلا قصرٍ يحميم، ولا حرسٍ يدفعون عنهم، ولا لقبٍ يغير حقيقة أعمالهم. لا يعود الإنسان هناك إلى الله بما جمع حول اسمه، بل بما جمع في قلبه وكتابه.

وفي كلمة ﴿تَأْتُونَ﴾ معنى الانقياد الذي لا مهرب منه؛ فالناس في الدنيا يختارون المجالس التي يحضرونها، وقد يتخلفون عن نداء الحق، ويغلقون آذانهم عن الموعظة، لكن ذلك الموعد لا يملك أحدُ الاعتذار عن حضوره. لقد أمهلهم الله في الدنيا لأن الإيمان لا معنى له تحت الإكراه، أما في الآخرة فقد انقضى زمن الاختيار، وصار المحيي جزءاً من سلطان الحقيقة. وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ: حِينَ يَنهَارُ السَّقْفُ المألوفُ

﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾

كانت السورة قبل قليل تقول: ﴿وَبَيْنَنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾، وها هي السماوات الشداد تُفتح بأمر الله وتكون أبواباً. إن التماسك الذي أبهر الإنسان لم يكن قائماً باستقلاله، بل بإمساك الله؛ فإذا جاء الموعد تغير النظام الذي ظنه الناس أدياً. وهذا الانتقال من البناء الشديد إلى الفتح المتعدد يعلن أن قوانين الدنيا ليست قيوداً على قدرة الله، بل هي من خلقه، يجريها ما شاء، ويبدلها حين يشاء.

والسما في شعور الإنسان هي رمز البعد والعلو والانغلاق؛ يراها سقفاً ممتداً لا يملك بلوغ نهايته، فإذا بها يوم القيامة تنفتح، وتبدل صورتها، ويصبح ما كان يبدو متصلاً ذا أبواب وفروج. إن الانقلاب لا يقع في حياة البشر وحدها، بل في البنية الكونية التي احتضنت حياتهم. فالיום عظيمٌ إلى درجة أن العالم المألوف كله لا يبقى كما كان؛ إذ لا يمكن أن

تجيء الآخرة بوصفها حدثاً صغيراً داخل ترتيب الدنيا، وإنما تأتي بعد أن يُعاد تشكيل المشهد كله.

وفتح السماء يكشف أن الحجب التي حالت بين الإنسان وعالم الغيب قد أزيلت، وأن ما كان خبراً صار مشاهدة. كان الناس ينظرون إلى السماء فلا يرون وراء زرقتها ما أخبرهم به الوحي؛ لا لأن خبر الوحي غائب عن الحقيقة، بل لأن أبصارهم خلقت في الدنيا ضمن حدود الابتلاء. أما يومئذٍ فتفتح السماء، وتنزل الملائكة، وينكشف من سلطان الله ما يجعل كل مكابر يوقن، لكن اليقين بعد رفع الحجاب ليس كالإيمان قبل رفعه.

إن قيمة الدنيا أنها دار الحجاب الجزئي؛ ترى فيها الآيات ولا ترى الذات الإلهية، وتسمع الخبر ولا تشاهد اليوم الآخر، وتؤمن بالملائكة وإن غابوا عن بصرك. وداخل هذا الحجاب يتجلى صدق القلب: هل يهتدي بالعلامة إلى ما وراءها، أم لا يصدق إلا ما تقع عليه حواسه؟ فإذا فُتحت السماء انقضى امتحان الغيب، وأصبح الإيمان القسري معرفةً مشتركة، لكن الجزاء يكون على الموقف الذي اتخذته الإنسان حين كانت السماء لا تزال في عينيه سقفاً مغلقاً.

وقد صنع البشر لأنفسهم أبواباً كثيرةً في الدنيا: أبواب السلطة، والمال، والنفوذ، والشهرة، وربما ظنوا أن من أغلقت في وجهه تلك الأبواب قد حُرِم كل شيء. لكن يوم القيامة تُفتح السماء نفسها، ويتبين أن الأبواب الأرضية كانت صغيرةً مهما عظمت في الوهم. وقد يُغلق الناس في وجه الصادق أبوابهم، ويبقى له باب الله؛ وقد يفتحون للنافق كل مداخل المجد العاجل، ثم يجد أن لا باب منها يصل به إلى النجاة. فالعبرة ليست بكثرة الأبواب التي فُتحت لك في الدنيا، بل بالوجهة التي قادتك إليها.

وَسِرَّتِ الْجِبَالُ: نِهَآيَةً وَهَمَّ الثَّبَاتِ

﴿وَسِرَّتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾

كانت الجبال في أول السورة ﴿أَوْتَادًا﴾، وها هي الآن تُسَيَّرُ حتى تصير ﴿سَرَابًا﴾. بين الوصفين تختصر السورة قصة الدنيا كلها: ما يبدو اليوم راسخاً قد يصبح غداً أثراً لا حقيقة له، وما يراه الإنسان نهاية القوة قد يذوب حين يأتي أمر الله. إنها مقابلةٌ مهيبَةٌ بين الثبوت في زمن الحياة والتسيير في يوم القيامة؛ فالذي ثَبَّتَهَا لحكمة قادرٌ على إزالتها لحكمة، ولا ثبات لخلقٍ إلا بالقدر الذي يأذن به الخالق.

والتسيير أشد وقعاً من مجرد الزوال؛ لأن الجبل الذي ارتبط في الحس بالسكون يتحرك، والكتلة التي كانت علامةً للمكان تفقد موضعها. فإذا تحركت الجبال، فأَيُّ شيء يبقى للإنسان ليركن إليه؟ إن الأرض التي عاش عليها لم تعد مألوفاً، والسماء التي ظلتها قد فُتحت، والجبال التي قاس بها معنى الرسوخ صارت سراباً؛ فلا يبقى ثابتاً إلا وعد الله، ولا يبقى ملجأً إلا إليه.

والسراب صورةٌ دقيقةٌ لكل قوةٍ خدعت الإنسان في الدنيا؛ يراها من بعيد ماءً، فإذا بلغها لم يجد شيئاً. كذلك المال حين يظنه صاحبه خلاصاً مطلقاً، والسلطة حين يتوهمها حصانةً من الحساب، والشهرة حين يحسب أن كثرة العيون عليه تعني أن له قيمةً عند الله، والنسب حين يتعامل معه كأنه جسرٌ يعبر به دون عمل. كل هذه جبالٌ نفسية واجتماعية قد تبدو راسخة، لكنها عند الموعد سراب؛ لا تروي خوفاً، ولا تستر عورةً، ولا تحمل ذنباً عن صاحبها.

وكم من جبلٍ صنعهُ الإنسان داخل نفسه: عادةً يظنُّ أنه لا يستطيع تغييرها، أو خوفٌ يراه أكبر من قدرته، أو شخصٌ يمنحه من الهيبة ما لا يليق إلا بالله، أو ماضٍ يتوهم أنه سيظل حاكماً على مستقبله. تأتي الآية لترد الأشياء إلى حجمها: الجبال نفسها تُسير، فكيف بأوهامك؟ ما دام الله قادراً على أن يجعل الأوتاد سراباً، فهو قادرٌ على أن يزيل من قلبك ما ظننته قدراً لا يتغير، إذا صدقت في الالتجاء إليه وأخذت بأسباب الإصلاح.

لكن المعنى الأصلي يبقى في جلاله الأخرى: الجبال الواقعية تُنسف وتُسير حتى يرى الناظر مواضعها كأنها سراب. وليس المقصود أن نذيب المشهد في الرموز النفسية، بل أن نجعل مشهد القيامة أصلاً، ثم نستلهم منه ما يربي القلب. فالقرآن يخبرنا عن حدثٍ حقيقي، لا عن استعارةٍ محضة، وكل أثر وجداني لا يستقيم إلا إذا بقي تابِعاً لهذا الإيمان.

وفي تسلسل المشاهد حركةٌ تبدأ بالصوت ثم تمتد إلى البشر فالسما فـالجبال: نفخٌ في الصور، ومجيءٌ في الأفواج، وفتحٌ للسما، وتسيرٌ للجبال. كأن الوجود كله يخرج من حالته القديمة استجابةً للأمر الواحد، بينما الإنسان الذي كان وحده يجادل في أمر القيامة يجد نفسه منقاداً داخل هذا التحول الشامل. كل شيء أطاع الله منذ البداية: الأرض حملت، والجبال ثبتت، والليل أظلم، والنهار أضاء، والشمس توهجت، والسحب أمطرت؛ والإنسان وحده مُنح الاختيار فاستعمله بعضه في التكذيب. فإذا جاء يوم الفصل عاد الجميع إلى مقام الانقياد، ولكن بعد انتهاء فضل الاختيار.

ويضع هذا المشهد الحياة الدنيا في حجمها الصحيح. ليست الدنيا باطلةً في ذاتها، فهي ميدان التكليف وموضع الزرع، لكنها باطلةٌ إذا اتخذها الإنسان غايةً نهائيةً؛ وليست نعمها سراباً من حيث كونها نعماً، لكنها تصير سراباً حين يطلب منها ما لا تملكه من خلودٍ وأمان

مطلق. المشكلة ليست أن يبني الإنسان بيتاً، بل أن يظن البيت مانعاً له من الرحيل، وليست أن يملك مالاً، بل أن يعتقد أن المال يمنحه ما لا يمنحه إلا الله؛ وليست أن يحب الحياة، بل أن يحبها حتى ينكر الموعد الذي يعطيها معناها.

إن يوم الفصل يفصل بين الانتفاع بالدنيا وعبادتها؛ فالمؤمن يأخذ منها ما يعينه على الطريق، لكنه لا يسلم لها قلبه، ويعمرها وهو يعلم أنه سيغادرها، ويحب ما فيها من الجمال دون أن ينسى أنه ظلُّ جمالٍ أبقي. أما الغافل فيطلب من المتغير ثباتاً، ومن الفاني بقاءً، ومن المحدود كفايةً مطلقةً، ثم يصحو يوم القيامة وقد تحولت جباله إلى سراب.

وتحمل الآيات نداءً خفياً إلى أن نجعل يوم الفصل حاضراً في فصول حياتنا الصغيرة. فكل موقفٍ يختلط فيه الحق بالهوى يحتاج إلى تذكر ذلك اليوم؛ وكل خصومةٍ تميل فيها النفس إلى الظلم ينبغي أن تُعرض على محكمة الآخرة قبل أن تتحول إلى كلمة أو فعل؛ وكل مالٍ مشتبهِه، وكل شهادةٍ نكتمها، وكل أمانةٍ نضيعها، يجب أن نراها في ضوء ﴿يَوْمَ الْقَصْلِ﴾. إن من استحضر المحكمة الكبرى أقام في قلبه محكمةً تمنعه من كثيرٍ من الانحراف قبل أن يقع.

وليس استحضار القيامة تعذيباً للنفس أو إطفاءً لبهجة الحياة؛ بل هو حمايةٌ للبهجة من أن تتحول إلى غفلة، وللقوة من أن تتحول إلى طغيان، ولحب من أن يتحول إلى عبودية، وللحزن من أن يتحول إلى يأس. فحين تعلم أن ثمة فصلاً عادلاً، لا تبتلعك خسارات الدنيا؛ وحين تعلم أن ثمة حساباً، لا تستهين بخطاياك؛ وحين تعلم أن ثمة موعداً، لا تبدد عمرك في طرقٍ لا تبلغ بك إليه آمناً.

وهكذا ينتقل النبأ العظيم من كونه موضوعاً للتساؤل إلى كونه مشهداً يملأ الكون: نفخةٌ لا يستطيع أحد تجاهلها، وأفواجٌ لا يملك فردٌ التخلف عنها، وسماءٌ تُفتح، وجبالٌ تُسير. لقد انتهى زمن السؤال الساهر، وبدأ زمن الجواب الذي يُرى. ولكن المشهد لن يقف عند اضطراب الكون؛ فبعد أن تُزال مظاهر الثبات الزائف، سيظهر المصير الذي أعده الله للطاغين، وتبرز جهنم مرصداً، كأنها كانت تنتظر الذين مروا بآيات الكون ولم يروا فيها إلا متاعاً، وسمعوا خبر القيامة فلم يزدتهم إلا نفوراً.

الفصل الرابع

جَهَنَّمُ مَرَصَادًا: حِينَ يَرْجِعُ الطَّغْيَانُ إِلَى عَاقِبَتِهِ

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۖ لِلطَّاغِينَ مَابًا ۖ لَا يَبْنِي فِيهَا أَحْقَابًا ۖ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۖ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۖ جزَاءً وَفَاقًا ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۖ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ۖ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ۖ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾

بعد أن اضطرب نظام الكون، وفتحت السماء، وسيرت الجبال، ينتقل المشهد من التحول الكوني إلى المصير الإنساني؛ فليست القيامة استعراضاً لأحوالٍ مجردة، وإنما هي يوم الجزاء الذي تظهر فيه عاقبة الاختيار. لقد انشق السقف الذي عاش الناس تحته، وزالت الجبال التي ظنوها مثال الثبات، وخرج البشر أفواجا، والآن تقف جهنم في طريق الطاغين، لا بوصفها حدثاً طارئاً ظهر بلا تقدير، بل مرصداً أعدَّ بالحق، وماباً لمن جعل حياته خروجاً متعمداً عن حدود الله.

وتتابع الآيات هنا بوقع شديد، فلا تترك للنفس مجالاً لتحويل الوعيد إلى صورة بعيدة. جهنم مرصاد، والطاغون عائدون إليها، واللبث طويل، والراحة ممتعة، والشراب عذاب، والجزاء موافق للعمل، وأصل الجريمة مكشوف: لم يكونوا يرجون حساباً، وكذبوا بالآيات تكذيباً بالغاً. ثم يأتي الكتاب الذي أحصى كل شيء، ويصدر الحكم الذي تقشعر منه الأرواح: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾.

إنها آيات لا يليق أن تُقرأ ببرود المعرفة، ولا أن تُحاط بزينة لفظية تصرف القلب عن رهبتها؛ فالجمال الأدبي أمام وعيد الله ينبغي أن يكون خادماً للخشية، لا ساتراً لها. ومهمة التدبر هنا أن يعيد إلى الإنذار حرارته، وأن يجعل الإنسان يسأل عن بذور الطغيان والتكذيب في نفسه قبل أن ينشغل بتعيين المهالكين من حوله؛ فالقرآن لم ينزل لتكشف به مصائر الآخرين ونسى مصيرنا، وإنما لنرى أنفسنا في مرآة الوحي، ونبادر إلى النجاة ما دام باب التوبة مفتوحاً.

إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا

المرصاد موضع الترقب الذي لا يفلت منه المارُّ، وفي الكلمة إحساسٌ بأن للطريق نهايةً تنتظر السائرين فيه. فالطاغي قد يمضي في الدنيا مسرعاً، ويتجاوز حدوداً كثيرة، ويتوهم أن عدم نزول العقوبة به دليلٌ على سلامة المسير؛ لكنه لا يرى آخر الطريق. إن الإمهال ليس إفلتاً، والستر ليس إقراراً، وتأخر الحساب لا يعني أن الحساب قد أُلغي. قد ينجو الظالم من محكمة البشر، ويشترى صمت الشهود، ويخو الوثائق، ويكتب لنفسه سيرةً منقحة؛ لكنه لا يستطيع أن يغير موضع المرصاد، ولا أن يسلك طريقاً خارج ملك الله.

وجاء التعبير بـ﴿كَانَتْ﴾ كما جاء من قبل في قوله: ﴿كَانَ مِيقَاتًا﴾، ليؤكد أن الأمر مقررٌ في علم الله، ثابتٌ ضمن عدله وحكمته. ليست جهنم انفعلاً طارئاً، تعالى الله عن ذلك، ولا انتقاماً منفصلاً عن العدل، بل دار جزاءٍ أعدّها الله لمن قامت عليهم الحجة واختاروا الطغيان والتكذيب. وإن الله لا يظلم مثقال ذرة، ولا يؤاخذ عبداً بغير حق؛ فشدة الوعيد لا تنفصل عن كمال العدل، كما أن سعة الرحمة لا تعني تسوية المعتدي بضحيته.

وفي المرصاد عدلٌ للمظلوم بقدر ما فيه وعيدٌ للظالم. فالذي عاش تحت سطوة طاغيةٍ قد يرى الدنيا كلها متحالفةً مع قاهره، وقد يسمع الناس يبررون الجريمة لأن فاعلها قوي، فيأتي القرآن ليخبره أن ثمة عيناً لا تنام، وعلماً لا يفوته شيء، ومرصاداً لا تحجبه الحراسة ولا تخدعه الأقنعة. ليس المطلوب من المظلوم أن يشفى بالتشفي، بل أن يطمئن إلى أن العدل ليس متروكاً، وأن حقه لا يضيع عند من يعلم السر وأخفى.

أما الطاغى، فإن أخطر ما يصيبه ليس العقوبة العاجلة، بل أن يمهّل حتى يظن أن الطريق خالٍ. فقد تكون بعض النجاحات الدنيوية امتحاناً شديداً، لأنها تمنح المنحرف دليلاً زائفاً على صواب انحرافه. كلما ازداد مالاً أو نفوذاً قال: لو كنت مبطلاً لما فتحت لي هذه الأبواب، فيحوّل النعمة إلى شهادة براءة، مع أن النعمة قد تكون استدراجاً، والباب المفتوح قد يقوده إلى المرصاد إن لم يتب.

ومن رحمة الله أن يخبرنا بالمرصاد قبل أن نبلغه، فالإنذار ليس رغبةً في هلاك الإنسان، بل دعوةً إلى تغيير الطريق. ما دام الطاغى حياً، فإن بينه وبين المآب باباً باسمه التوبة، يردُّ به المظالم، ويكسر استعلاء نفسه، ويعود إلى حد العبودية. فإذا أغلق على نفسه هذا الباب حتى جاء الموت، لم يعد العلم بالمصير قادراً على إصلاح ما أفسده طول الإصرار.

لِلطَّاغِينَ مَآبًا

الطغيان مجاوزة الحد، وهو أوسع من صورة الحاكم الجبار، وإن كانت من أوضح صوره وأشدّها. قد يطفى صاحب القوة على الضعيف، والرجل في بيته، والغني على المحتاج، وصاحب المعرفة على من دونه، والجماعة على الفرد، والإنسان على نفسه حين يقودها بعيداً

عن فطرتها وغاية خلقها. وقد يبدأ الطغيان صغيراً: كلمةٌ يستعلي بها المرء، أو حقاً يؤخره، أو حدوداً يتجاوزها لأنه يظن أن أحداً لن يحاسبه؛ ثم يكبر كلما أُطعم بالصمت والتبرير.

والطاغية ليس من امتلك قوةً فحسب، بل من نسي أن القوة أمانة، فحوّلها إلى حقٍّ مطلق في الآخرين. القوة في ميزان القرآن لا تُدان لذاتها؛ فقد تكون وسيلةً لحماية الحق ونصرة الضعيف، وإنما يبدأ الطغيان حين تفارق القوة العدلَ، وحين يرى صاحبها نفسه فوق الحدود التي تلزم غيره. فيحاسب الناس ولا يقبل أن يحاسبه أحد، ويطالبهم بالطاعة ولا يطالب نفسه بالحق، ويستعمل ما أعطاه الله لهدم مراد الله.

وقوله: ﴿مَأْبًا﴾ يعني مرجعاً ومصيراً يعودون إليه؛ وفي التعبير مفارقةً ثقيلة، فالطاغي عاش في الدنيا كأنه يتقدم دائماً: يصعد في السلطة، ويتسع في النفوذ، ويضم إلى ملكه مزيداً من الأرض والناس؛ لكنه كان في حقيقته عائداً إلى مأبه. كل خطوة في الطغيان لم تكن ارتقاءً، بل اقتراباً من الهاوية، وكل نصرٍ حققه على مظلوم كان هزيمةً جديدةً في كتابه، وإن صفق له الناس.

وقد تستوقف كلمة ﴿مَأْبًا﴾ القلب؛ فالناس جميعاً يبحثون عن مأب، عن موضع يعودون إليه بعد التعب، وعن بيتٍ يطمئنون فيه بعد الطريق. والمتقون سيجدون مأبهم في رحمة الله، أما الطاغون فقد صنعوا بأعمالهم مأباً من جنس طريقهم. فالعاقبة ليست منفصلةً عن الاختيار، والإنسان لا يسير في الطريق ثم يُفاجأ بنهاية لا علاقة لها به؛ بل إن كل عملٍ يضع لبنه في المصير، حتى إذا جاء يوم الكشف رأى المرء أن الدار التي بلغها كانت تتشكل من خطواته القديمة.

لَا يَثْنِي فِيمَا أَحْقَابًا

الأحقاب أزمنة متتابعةٌ ممتدة، كلها انقضى حقب تبعه حقب، في صورةٍ تنزع من النفس أمل الانتهاء القريب. إن عذاب الدنيا، على قسوته، يخففه إدراك المرء أن الوقت يمضي وأن للمحنة أجلاً؛ أما هنا فالزمن نفسه يصبح جزءاً من العذاب، فلا ساعةٌ تعد بالخلاص، ولا ليلٌ ينتهي إلى صباح راحة.

والقرآن يخاطب الإنسان الذي يبدد سنواته في الغفلة كأنه يملك الزمن، فيريه أن الزمن الذي استهان به هنا قد يلقاه هناك في صورة أحقاب. كانت لحظة التوبة في الدنيا قصيرةً وممكنة، وكان الاعتذار قادراً على رد قلبٍ مكسور، وكان رد الحق لا يحتاج إلا قراراً صادقاً؛ لكنه أجلٌ وصمٌ على الطغيان، حتى انتقل من زمن العمل المحدود إلى زمن الجزاء الممتد.

ما أغرب مقايضة الغافل: يشتري لذةً تنتهي بعاقبة لا تنتهي، ويحمل غضب الله كي لا يتحمل مشقة مجاهدة نفسه ساعة، ويخاف انكسار مكانته أمام البشر أكثر من خوفه من الموقف بين يدي الله. إنه يرمح لحظةً ويخسر أحقاباً؛ لا لأن طريق النجاة كان مستحيلاً، بل لأنه استتقل كلفة الرجوع العاجلة، فاختار كلفة الإصرار الكبرى.

ولا ينبغي أن تُقرأ هذه الآية لتغذية اليأس؛ فهي خطابٌ للأحياء قبل أن تكون وصفاً للمحكوم عليهم. ما دام المرء يسمعها وهو قادراً على التوبة، فهي رحمةٌ تدعوه إلى النجاة من ذلك اللبث. إن الله الذي خوَّف عباده من النار هو الذي فتح لهم أبواب المغفرة، وجعل الندم الصادق بداية طريق جديد، فلا يحسن بمن بلغه التحذير أن يحوله إلى قنوط، كما لا يجوز له أن يحوّل الرجاء إلى أمنٍ من مكر الله.

لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا

الذوق في أصل استعماله إدراك الطعم، لكنه يأتي في القرآن لمعنى المعاناة المباشرة التي لا تبقى خبراً خارجياً. كانوا يسمعون عن العذاب في الدنيا فيتعاملون معه ككلام، فإذا هم في الآخرة يذوقونه؛ والفرق بين السماع والذوق هو الفرق بين معرفة تستطيع أن تنفعلك، وتجربة لا تملك بعد وقوعها إلا أن تعانيها.

ينفي الله عنهم البرد والشراب؛ فلا راحة تخفف حرارة العذاب، ولا ماء يطفى الظمأ. وكان البرد والماء من أبسط نعم الدنيا وأعمها، يبلغان الإنسان في كثير من أوقاته بلا جهدٍ عظيم، حتى قد يشرب فلا يستشعر أن الكأس رحمة، ويأوي إلى الظل فلا يرى فيه منحة. لكن النعمة تُعرف أحياناً حين يُتصور غيابها؛ ومن هنا يعيد وعيد الآخرة تربية القلب على الشكر في الدنيا.

ما أكثر النعم التي نعبها دون اعتراف: جرعة ماء، ونفس هادئ، وساعة نوم، ونسمة تخفف الحر، وجسد لا يصرخ من الألم. ينشغل الإنسان بما ينقصه حتى يغيب عنه ما يحويه، ويقارن نفسه بمن فوقه في المتاع حتى ينسى أنه محاطٌ بعطايا لو سلب واحدة منها لبذل كثيراً مما يملك لاستعادتها. وسورة النبأ، بعد أن ذكرت الماء الثجاج الذي يخرج به الحب والجنات، تعرض هنا داراً لا يجد أهلها فيها ماءً يروي؛ ليتضح الفارق بين من تلقى نعمة الله بالشكر، ومن تلقاها بالجدود والطغيان.

والنعيم ليس مجرد امتلاك الأشياء، بل القدرة على التلذذ بها في أمن؛ وكذلك العذاب ليس وجود الألم وحده، بل انعدام كل منفذٍ للراحة. ففي الدنيا قد يجد المتألم ماءً أو نوماً أو كلمةً حانيةً تخفف عنه، أما في ذلك المصير فقد انقطعت أسباب التخفيف. وحسب

القلب أن يستحضر هذا المعنى ليعلم أن كل ظلٍ في الدنيا رسالة رحمة، وأن كل ماءٍ بارد يستحق حمداً لا يقتصر على اللسان، بل يمتد إلى استعمال النعمة في طاعة المنعم.

إِلَّا حَمِيماً وَغَسَاقاً

يأتي الاستثناء لا لينحهم شراباً يريحهم، بل ليزيد صورة العذاب رهبةً؛ فالحميم ماءٌ بلغ الغاية في الحرارة، والغساق مما يكون لأهل النار من شرابٍ بالغ الكراهة والأذى. ما يُقدم إليهم يحمل اسم الشراب من جهة، لكنه لا يؤدي وظيفة الشراب، بل يصير لوناً آخر من الألم. وهكذا ينقلب الشيء الذي ارتبط في الدنيا بالحياة والارتواء إلى أداة عذاب، لأنهم قلبوا في الدنيا وظائف النعم: استعملوا القوة للبطش، والمال للفساد، واللسان للتكذيب، والعقل للمراوغة؛ فجاء الجزء في صورةٍ تكشف هذا الانقلاب.

إن جهنم ليست مادةً للخيال الفني ولا مشهداً يروى لاستثارة عاطفةٍ عابرة، بل حقيقةٌ غيبية يجب أن تُستقبل بالتسليم والخوف والاستعاذة. وما أخبر الله به من تفاصيلها ثبتته كما جاء، من غير تكلف في وصف ما لم يصفه، ولا تهوين لما عظّمه. فالموقف الصحيح أمام آيات الوعيد ليس الفضول، بل الافتقار: أن يسأل المرء الله النجاة، وأن يفتش في نفسه عن الأسباب التي تقوده إلى العذاب، وأن يوقن بأن الأعمال ليست أصواتاً تتلاشى، بل حقائق تتر مصيراً.

ومن أعظم أخطار اعتياد الخطاب الديني أن تمر ألفاظ النار على الأذن دون أن تبلغ القلب؛ فيقول اللسان «حميماً وغساقاً» بينما يظل السلوك كما هو. إن القصد ليس أن يبقى الإنسان في رعبٍ يشلّه، وإنما أن يتحول الخوف إلى بصيرة: يمنع من ظلم عبد، وأكل حق،

وهتك عرض، والإصرار على معصية. الخوف الذي لا يغير شيئاً في الاختيار إحساس ناقص، كما أن الرجاء الذي لا يدفع إلى التوبة أمنيةً تخدع صاحبها.

جَزَاءٌ وَفَاقًا

هذه الآية هي ميزان المشهد كله: ﴿جَزَاءٌ وَفَاقًا﴾؛ جزاءٌ موافقاً للعمل، لا ظلم فيه ولا زيادة بغير حق. لقد جاء العذاب شديداً لأن الجريمة في حقيقتها شديدة، وإن خَفَّ وزنها في أعين أصحابها. والطغيان ليس خطأً عابراً؛ إنه عدوانٌ على حدود الله وحقوق الخلق، والتكذيب ليس غياب معلومةٍ فحسب؛ إنه رفضٌ للحق بعد بلوغه، يتبعه بناء حياةٍ على إنكار الحساب.

وفي الوفاق تظهر العدالة الإلهية التي لا تنفصل عن العلم الكامل. البشر قد يحكمون على الظاهر، وقد يساوون بين من أخطأ مرةً ثم ندم ومن جعل الخطأ منهجاً، وقد لا يعرفون مقدار الإكراه والجهل والقصد؛ أما الله فيعلم السرية والظروف والحجة والقدرة والنية، فلا يضع شيئاً في غير موضعه. ليس في الآخرة حكمٌ جماعي أعمى، بل عدلٌ يحيط بكل فردٍ إحاطةً لا يستطيعها قضاء البشر.

والجزاء من جنس العمل على نحوٍ يكشف باطنه؛ فالطغاة أحرقوا أمن الناس، فصار مصيرهم النار، ومنعوا عن الضعفاء برد الرحمة، فلا يذوقون برداً، وأظمؤوا الأرواح إلى العدل، فلا يجدون شرباً يروي. كأن الأعمال التي بدت في الدنيا معنويةً تتجسد في الآخرة حقائقٌ محسوسةٌ، ويرى الإنسان ما كان يزعه وهو لا يشعر بحرارة البذور التي ألقاها في حياة الآخرين.

وكلمة ﴿وَفَاقًا﴾ تقطع الطريق على الاعتراض الذي يريد فصل العقوبة عن أسبابها. لم تُخلق النار لتصيد الأبرياء، ولم يُقدِّ الطاغون إليها بسببِ عثرةٍ مجهولة، وإنما اختاروا طريقاً طويلاً من

البحود والعدوان، وأهلوا، وأُذروا، ودُعوا إلى الرجوع، ثم أُصروا حتى وافق المصير ما قدّموا. والعدل الإلهي لا يعني أن كل إنسان يصيبه الوعيد لمجرد خطأ؛ فباب التوبة، والحسنات الماحية، والمغفرة، والشفاعة بإذن الله، كلها من حقائق الدين، لكن الآيات تصف من استقر على الطغيان والتكذيب حتى لقي الله بهما.

وفي المقابل، تمنح الآية المؤمن طمأنينةً أخلاقية: الكون لا ينتهي إلى فوضى، والأعمال لا تتساوى، والدماء ليست كالماء، والرحمة ليست كالوحشية، والسجدة الخفية ليست كالكبر العلن. كل شيء سيجد ما يوافقه في ميزان الله، وإن لم ير الإنسان وفاءه كاملاً في الدنيا.

إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا

تكشف السورة هنا الجذر الذي أُنبت الطغيان: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾؛ أي لا يتوقعونه ولا يخافونه ولا يعيشون على استحضاره. ليست المشكلة في ضعفٍ بشري وقعوا فيه ثم قاوموه، بل في تصورٍ كاملٍ للحياة أسقط الحساب من أفقه. وحين يُلغى الحساب من الضمير، تتحول القوة إلى قانون، والمصلحة إلى قبلة، واللذة إلى مقياس، ويصبح السؤال: ماذا أستطيع أن أفعل؟ بدلاً من: ماذا يحق لي أن أفعل؟

إن انتظار الحساب هو الحارس الداخلي الذي يبقى حين تغيب العيون. قد تمنع القوانين الإنسان من الجريمة ما دام يخشى العقوبة، وقد يمنعه المجتمع ما دام يخاف الفضيحة، لكن ماذا يحدث حين يأمن القانون ويغيب الناس؟ هنا يظهر أثر الإيمان: يعلم أن الخلوة ليست فراغاً من الرقابة، وأن السر عند الله علانية، وأنه سيقف وحده ليسأل عما حسب أنه دُفن في الظلام.

ولا يعني رجاء الحساب أن يعيش المؤمن مهووساً بالخوف عاجزاً عن الفرح، بل أن يبقى ميزان الآخرة حاضراً في قراراته. يفرح دون بطر، ويملك دون استعبداء، ويختلف دون فجور، ويغضب دون ظلم؛ لأنه يعلم أن كل مساحةٍ مُنحت له محكمةٌ بحدود الله. إن الحساب لا يضيق الحياة، بل يحميها من طغيان الأقوياء وانفلات الشهوات، ويمنح كل فعلٍ قيمته التي تتجاوز نتيجته العاجلة.

وقد يؤمن المرء بالحساب نظرياً، لكنه لا يرجوه في سلوكه؛ يذكر القيامة بلسانه ثم يخاصم كأن لا كتاب، ويؤخر الحقوق كأن لا ميزان، ويخلو بالمحرم كأن لا شهيد. وهذا لونٌ من الغفلة العملية يحتاج إلى مراجعة دائمة؛ فالعقيدة لا تُقاس بما نحفظه فحسب، بل بمقدار ما يدخل منها في لحظة القرار. والسؤال الصادق ليس: هل أقول إنني أؤمن بالحساب؟ بل: أين ظهر هذا الإيمان حين قدرتُ على الظلم، وحين دعاني الهوى، وحين تعارض الحق مع مصلحتي؟

إن إسقاط الحساب يُفسد العمر كله؛ لأن الإنسان عندئذ لا يرى للعمل إلا نتيجته القريبة. فإذا نفعه الكذب كذب، وإذا أضرت الأمانة تركها، وإذا نجا من العقوبة ظن أنه نجح. أما من يرجو الحساب فيرى أبعد من اللحظة؛ قد يخسر منفعةً قريبةً ليحفظ وجهه عند الله، ويتحمل ثقل الصدق لأن راحته لا تُقاس بيومٍ عابر، ويعفو حين يقدر لأن ما عند الله أحب إليه من انتصار النفس.

وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا

لم يكتفوا بإهمال الحساب، بل واجهوا الآيات بتكذيبٍ بالغٍ متكرر. وجاء المصدر ﴿كَذَابًا﴾ لتأكيد شدة التكذيب وتجاوزه الحد؛ فقد لمعت الآيات في الكون، وجاءت آيات الوحي،

وقامت الحجّة، لكنهم لم يتركوا قلوبهم ترى. إن التّكذيب هنا ليس سؤال الباحث الذي لم يتبين له الطريق، بل موقفٌ إرادي يقاوم الحقّ لأنّه يهدد بناء الهوى والمصلحة.

والآيات نوعان متكاملان في سياق السّورة: آياتٌ تُبلى، وآياتٌ تُرى. تلا عليهم الرّسول ﷺ خبر البعث، وأحاط الله بهم بالأرض المهّاد والجبال الأوتاد والليل والنهار والماء والنبات؛ فكأن الحقيقة جاءت من طريق السمع والبصر معاً. ومع ذلك كذبوا، لأن كثرة الأدلة لا تنفع قلباً قرر مسبقاً ألاّ يستجيب. قد تكون مشكلة الإنسان أخلاقيةً وهو يلبسها ثوباً فكريّاً، يقول: لم أقنع، بينما المعنى الأعمق: اقتنعت بما يكفي لأشعر بالتكليف، لكنني لا أريد ما يطلبه مني الحقّ.

والتكذيب بالآيات يبدأ أحياناً قبل أن ينطق اللسان بالإنكار؛ يبدأ حين تُعرض الآية على الهوى، فإن وافقته قبّلت، وإن خالفته أوّلّت أو أبعدت. ويبدأ حين يجعل الإنسان نفسه حكماً على الوحي، لا طالباً للهداية منه. ليس التدبر أن نسأل القرآن أن يوافق رغباتنا، بل أن ندخل عليه مستعدين لأن يصححنا، ويهدم فينا ما بناه المجتمع أو المصلحة أو الغرور.

ومع ذلك ينبغي التفريق بين المتسائل الصادق والمكذب المعاند؛ فالقرآن لا يذم طلب البيان، بل يدعو إلى النظر والتفكير، وإنّما يذم السؤال الذي اتخذ ستاراً للإعراض. وقد يكون الاعتراف بالحيرة بداية هداية إذا صاحبه تواضع، بينما يكون الادعاء باليقين بداية ضلال إذا أغلق صاحبه قلبه عن الدليل. والله وحده يعلم سرائر عبادّه، فلا يجوز لنا أن نتخذ آيات الوعيد سلاحاً تصدر به أحكام المصير على الأفراد؛ إنّما نعرف الأوصاف ونحذر منها، ونكل حكم الأشخاص إلى العليم العدل.

وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا

بعد أن ذكرت السورة أنهم لم يرجوا حساباً وكذبوا بالآيات، تأتي الحقيقة التي تهدم وهم الإفلات: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾. كل شيء؛ لا الأحداث الكبرى وحدها، ولا الجرائم التي عرف بها التاريخ فقط، بل الكلمة العابرة، والنظرة الخفية، والنية المستورة، والخطوة التي لم يرها أحد، والألم الذي تركه فعلٌ صغير في قلب إنسان. ما نسيه صاحبه لم يغب عن علم الله، وما ضاع من ذاكرة الضحية لم يخرج من الإحصاء.

والإحصاء يدل على الضبط والاستيعاب؛ فلا شيء يسقط سهواً، ولا تختلط صحيفةٌ بصحيفة، ولا تُنسب جريمةٌ إلى بريء، ولا حسنةٌ إلى غير صاحبها. وذكر الكتاب يجعل المعنى أقرب إلى الحس: كأن ما كان متناثراً في الزمن قد جُمع وثبت، وما حسبه الإنسان لحظات ذائبة صار سجلاً ينتظره. لقد كان يمضي من الموقف ولا يلتفت، لكن الموقف لم يمضي من كتابه.

والإنسان نفسه يكتب اليوم كثيراً من تفاصيل حياته، ويحفظ صوره ورسائله، ويكتشف أن التقنية تستطيع استعادة آثار ظنها قد اختفت، فكيف بعلم الله الذي لا يسبقه جهل ولا يلحقه نسيان؟ إن تشبيه الحفظ البشري بعلم الله لا يليق من جهة الإحاطة والكيفية، فليس كمثله شيء، لكنه يوقظ في الإنسان معنى قريباً: إذا كانت بعض آثارك تُحفظ بأدوات المخلوق، فكيف نتوهم أن أثراً يضيع عن الخالق؟

غير أن هذه الآية ليست خوفاً للمسيء وحده؛ إنها سكينَةٌ للمحسن أيضاً. كل شيء قد أُحصي، بما فيه الخير الذي لم يصفق له أحد، والدمعة التي كتبتها، والكلمة التي قلتها لتنهض بروج منكسرة، والصدقة التي أخفيها، والصبر الذي ظنه الناس عجزاً وكان عند الله عبادة.

ما دام كل شيء مكتوباً، فلا تقلق لأن الناس لم يعرفوا فضلك، ولا تجعل حاجتك إلى الاعتراف البشري تفسد إخلاصك؛ فحسب العمل أن يعله الله.

وهي كذلك عزاء لمن جهل ألمه؛ فثمة جراح لا يستطيع أصحابها شرحها، ومظالم تقع بلا وثيقة، وأوجاعٌ يعجز اللسان عن تصويرها. لكن الكتاب لا يحتاج إلى بلاغة المظلوم، لأن الذي أحصى يعلم ما وقع وكيف وقع ومقدار أثره. وكم تمنح هذه الحقيقة الروح من الطمأنينة: لست مضطراً أن تمنع العالم كله بقصتك لكي تكون قصتك معلومة عند الله.

ومعنى الإحصاء لا يدعو إلى الوسواس الذي يحول الدين إلى رعبٍ مرضي من كل حركة، بل إلى يقظةٍ متوازنة تجمع الخوف والرجاء. فالذي أحصى الذنب هو الذي شرع التوبة، والذي كتب السيئات أمر بكتابة الحسنات، والذي يعلم ضعف العبد يحب رجوعه. والمطلوب أن نرى الكتاب سبباً للمراجعة لا لليأس، وأن نبادر إلى محو آثار الشر بالتوبة والإصلاح ورد الحقوق، قبل أن تغلق الصحيفة بالموت.

فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا

تأتي خاتمة المقطع في جملة تعد من أشد آيات الوعيد وقعا: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾. كان باب الزيادة في الدنيا مفتوحاً على اتجاhein: يستطيع الإنسان أن يزداد إيماناً أو كفراً، قريباً أو بعداً، حسناتٍ أو سيئات، وكان يستطيع في كل لحظة أن يوقف طريق الانحدار ويبدأ الصعود. أما وقد جاء الحكم، فإن الذين أصروا على الطغيان والتكذيب لا يجدون زيادةً إلا في العذاب.

إن لفظ ﴿فَذُوقُوا﴾ يضعهم داخل ثمرة أعمالهم؛ كأن ما كانوا يصنعونه قد نضج، وجاء وقت تذوقه. كانوا في الدنيا يذيقون الضعفاء مرارة الخوف والحرمان، ويجدون في سلطتهم

لذة عابرة، فإذا اللذة تتقلب مرارةً مقيمة. وهذا هو ﴿جَزَاءٌ وَفَاقًا﴾ في أشد صورهِ: ما أُخفيت حقيقته خلف زينة العاجلة يظهر في الآخرة بلا غطاء.

وفي قوله: ﴿فَلَنْ نَزِيدَ كُمْ﴾ مواجهةٌ لوهم التمني؛ فلا باب لتبدل الحكم بعد انقضاء وقت التوبة. إن الإنسان في الدنيا يستطيع أن يغير مستقبله الأخرى بقرار صادق، أما هناك فيتمنى الرجوع فلا يُجاب. ومن هنا تتجلى قيمة اللحظة الراهنة؛ فأنت الآن في دار يمكن أن تزيدك آية واحدة هداية، وسجدة واحدة قرباً، وتوبة واحدة محواً، ومظلمة واحدة نجاه. اليوم ما تزال الزيادة بيد اختيارك، وغداً تكون الزيادة جزاءً على ما اخترت.

وما أرحم الإنذار حين يصل قبل وقوعه! إن الآية قاسيةٌ على قلبٍ يريد البقاء في الغفلة، لكنها من أعظم الرحمة لقلبٍ يريد النجاة. تخبرك بالنهاية حتى لا تمشي إليها، وترسم لك الهاوية حتى تغير اتجاهك، وتهزك الآن كيلا تأتيك الهزة في وقتٍ لا ينفع فيه الاستيقاظ. فالقرآن لا يصف النار ليدفع الإنسان إليها، بل ليقم بينه وبينها سياجاً من الخوف الواعي والتوبة والعمل الصالح.

وتدعوننا الآية إلى مراجعة معنى الزيادة في حياتنا: ماذا نطلب كل يوم أن يزداد؟ المال، والأتباع، والذكر، والنفوذ؟ تلك زيادات قد تكون نعمةً أو فتنة، بحسب ما تصنعه في القلب. أما الزيادة التي تستحق أن يُستنفد فيها العمر فهي زيادة الهدى والصدق والرحمة، وأن يكون اليوم أقرب إلى الله من الأمس. فمن لم يزد في الخير قد تجرَّهُ الأيام إلى زيادةٍ لا يريدُها؛ لأن القلب لا يبقى فارغاً، والعادات تتراكم، والخطأ الصغير إذا لم يُقاوم يصير طبعاً.

وهكذا يكشف هذا الفصل البنية الداخلية للهلاك: بدأ الطغيان من تجاوز الحد، وتغذى من غياب انتظار الحساب، وتحصن بتكذيب الآيات، ثم وجد كل شيء محفوظاً في الكتاب،

وانتهى إلى جزاءٍ يوافق الطريق. لم تكن جهنم خاتمةً اعتباطية، بل كانت المرصاد الذي قاد إليه المسار كله. فالهاوية لا تبدأ عند أبواب النار، وإنما قد تبدأ في القلب حين يتصور الإنسان أنه لن يُحاسب؛ كما أن النجاة لا تبدأ عند أبواب الجنة، بل تبدأ هنا، حين يستيقظ الضمير، ويؤمن بالخبر، ويرجع عن الطغيان، ويجعل بينه وبين عذاب الله وقايةً من التوحيد والتوبة والعمل الصالح.

وبعد أن بلغت السورة بهذا المشهد غاية الرهبة، لا تترك القلب محاصراً بالخوف وحده؛ فالقرآن يربي الإنسان بجناحين، ويحفظ توازنه بين الخشية والرجاء. فإذا كانت جهنم مرصداً للطاغين، فإن للمتقين مفازاً؛ وإذا كان أولئك لا يذوقون برداً ولا شرباً، فإن هؤلاء في حدائق وأعناب، وإذا كان جزاء الطغاة عذاباً يوافق عملهم، فإن عطاء المتقين فضلٌ من رب كريم. ومن أعتام المشهد ستفتح السورة نافذة النعم، لنعلم أن يوم الفصل لا يكشف عن العدل في العقوبة فحسب، بل يكشف كذلك عن الكرم في الثواب.

مَفَازُ الْمُتَّقِينَ: حِينَ يَصِلُ الْخَائِفُونَ إِلَى الْأَمَانِ

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ﴿٥﴾ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٦﴾﴾

بعد مشهد جهنم المرصاد، وما فيه من الأحقاب والحميم والغساق والجزاء الموافق للطغيان، يفتح في السورة أفق آخر؛ كأن القلب الذي ضاق من شدة الوعيد يجد فجأة نسمةً من الرحمة تمر به: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾. وفي الانتقال من الطاغين إلى المتقين يتجلى يوم الفصل في أكل معانيه؛ فهو اليوم الذي لا يكتفي بكشف مصير المجرمين، بل يظهر فيه كذلك أن الطاعة لم تذهب سدى، وأن الصبر الذي لم يعرف الناس كلفته كان محفوظًا، وأن الذين خافوا الله في الغيب لم يكن خوفهم حرمانًا، وإنما كان الطريق إلى الأمان الأكبر.

إن القرآن لا يبني الإنسان على الخوف وحده؛ لأن الخوف إذا انفرد ربما أورث القنوط أو الانقباض، ولا يبينه على الرجاء وحده؛ لأن الرجاء إذا انفصل عن المسؤولية قد يتحول إلى أمنية كسولة. لكنه يجمع بينهما بحيث يمنع الخوف النفس من الاسترسال، ويفتح الرجاء أمامها باب العودة؛ فإذا نظرت إلى جهنم عرفت خطر الطريق، وإذا نظرت إلى المفاز عرفت أن الطريق يستحق الصبر. بين المرصاد والمفاز تتحرك إرادة المؤمن: يهرب من غضب الله إلى رضاه، ومن أسباب الهلاك إلى أسباب الرحمة، ومن طغيان النفس إلى تقوى القلب.

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا

جاءت الآية بالتوكيد: ﴿إِنَّ﴾، كما جاء في قوله: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾؛ فكما أن الوعيد حق، فإن الوعد حق، وكما أن العدل لا يترك الطغيان بلا جزاء، فإن الكرم لا يترك التقوى بلا عطاء. ولا ينبغي أن يكون يقين المؤمن بوعد الله أضعف من يقينه بوعيده؛ فالذي حذر من النار هو نفسه الذي وعد بالمفاز، وكلامه كله صدق، ورحمته سبقت غضبه.

والمفاز لفظٌ يجمع النجاة والظفر؛ فهو ليس مجرد الخروج من الخطر، بل الوصول إلى الخير المطلوب. قد ينجو المرء في الدنيا من محنةٍ ثم يجد نفسه في فراغ، أما مفاز الآخرة فنجاةٌ من النار وفوزٌ بالجنة ورضوانٌ من الله. إنه انتقالٌ من الخوف إلى الأمن، ومن التعب إلى الراحة، ومن نقصان الدنيا إلى تمام العطاء، ومن مجاهدة الغيب إلى لذة المشاهدة واليقين.

وفي اختيار المفاز بعد المِرصاد تناسقٌ بالغ؛ فالطريق واحدٌ من جهة أن الجميع يمشون إلى يوم الفصل، لكن النهايات تختلف باختلاف ما حملته القلوب وما صنعتها الجوارح. هناك قومٌ انتهى بهم الطريق إلى ما كان يرصدهم، وقومٌ انتهى بهم إلى الفوز الذي عملوا له. لم تكن التقوى عبثًا حملوه ثم ألقوه بلا ثمرة، بل كانت مركب النجاة، وإن بدت في الدنيا تكليفًا ثقیلاً في بعض المواقف.

والمتمتقون هم الذين جعلوا بينهم وبين سخط الله وقايةً من الإيمان والطاعة والتوبة؛ لا الذين لم يخطئوا قط، فالعصمة ليست لبني آدم، ولكن الذين إذا زلوا رجعوا، وإذا ذُكِّروا تذكروا، وإذا دعيتهم القدرة إلى الظلم ردتهم خشية الله. التقوى ليست ادعاء الكمال، بل دوام

الافتقار إلى الله، ومراقبته في السر، والحرص على ألا يجد العبد نفسه حيث نهاه، وألا يفتقده حيث أمره.

وهي تبدأ في القلب، لكنها لا تبقى إحساساً خفياً لا أثر له؛ تظهر في اليد حين تمتنع عن الحرام، وفي اللسان حين يختار الصدق، وفي العين حين تغض، وفي الخصومة حين يقف صاحبها عند العدل، وفي السلطة حين تصير رعاية لا تسلطاً. ليس المتقي من يكثر الحديث عن الخوف من الله ثم لا يخافه في حقوق الناس، ولا من يطيل عبادته ثم يطلق لأذاه العنان؛ فالتقوى التي لا تصنع خلقاً وعدلاً ورحمة تحتاج إلى مراجعة صدقها.

وقد خاف المتقون في الدنيا يوماً لم يروه، فأمنهم الله يوم رأوه؛ وخشوا الحساب وهو خبر، فصار لهم يوم الحساب مفازاً؛ وضيقوا على شهواتهم ساعة، فوسّع الله عليهم في النعم أبداً. وهذه من عدالة الطريق: أن ما يظنه الغافل حرماناً في الطاعة يكون في حقيقته ادخاراً، وأن ما يظنه فوزاً في المعصية يكون استهلاكاً عاجلاً يتبعه الفقر الطويل.

إن التقوى تمنح الإنسان مفازاً قبل الآخرة أيضاً، دون أن يكون ذلك هو المقصود الأول من الآية؛ فهي تنجي في الدنيا من عبودية الهوى، ومن ذل التناقض، ومن الخوف الدائم من انكشاف الأقنعة. المتقي أكثر حرية؛ لأنه لا يحتاج إلى أن يرضي كل أحد، ولا إلى أن يخترع لكل خطأ رواية تبرره. يكفيه أن يعرف موضعه من رضا الله، وأن يراجع نفسه إذا أخطأ. أما من جعل هواه سيداً عليه، فقد يبدو حراً، لكنه مقيدٌ بكل شهوة لا يملك مقاومتها.

حَدَّثَنَا وَأَعْنَابُ

يبدأ تفصيل المفاز بمشهدٍ أخضر: ﴿حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾. بعد جهنم وما فيها من حرمان البرد والشراب، تأتي الحدائق بما تحمله من حياة وظل وجمال، وتأتي الأعناب بما فيها من رزق ولذة وامتناء. إن النعيم لا يُعرض فكرةً مجردة، بل يُقرب إلى النفس بصور تعرف أصلها في الدنيا، مع بقاء حقيقة ما أعده الله فوق ما نتصوره العقول.

والحديقة موضعٌ محدود محفوظ، اجتمع فيه النبات والماء والظل والثمر، فهي صورةٌ من صور الرعاية. وفي الدنيا يعرف الإنسان جمال الحديقة، لكنه يعرف معها خوف الذبول، وتبدل الفصول، وآفة الثمر، وانتهاء الزبارة؛ أما حدائق الآخرة فلا يدخل عليها فساد الزمن، ولا يقف عند أبوابها شبح الفناء. هناك لا يكون الجمال لحظةً مهددة، بل مقاماً مستقرّاً.

وقد ذكرت السورة في دلائل القدرة: ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾، ثم ذكرت هنا: ﴿حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾؛ فكأن جنات الدنيا كانت برهاناً على القدرة من جهة، وإشارةً إلى النعيم من جهة أخرى. الذي أخرج الحدائق من ماءٍ وترابٍ قادرٌ على أن ينشئ للمتقين حدائق لا يلحقها نقص. وما الجمال الأرضي إلا قطرةٌ تعرّف القلب إمكان النعمة، دون أن تحيط بما ادخره الله لعباده.

وفي ذكر الأعناب خصوصية اللذة وسهولة التناول وجمال المنظر، لكن الجنة لا تُحتزل في طعام وشراب؛ فهذه الألفاظ تقرّب إلى الإنسان ما يستطيع فهمه، بينما يبقى نعيم الآخرة أوسع من خياله. إن الله يخاطب البشر باللغة التي يدركونها، ويذكر لهم من جنس محبوباتهم ما يفتح أبواب الشوق، أما الحقيقة الكاملة فلا يحيط بها تصورٌ تكون داخل عالم النقص.

ولجنة معنى يتجاوز وفرة الأشياء إلى أمن القلب؛ فكم من إنسان يملك حديقةً في الدنيا ولا يستطيع أن يستمتع بها لأن داخله صحراء، وكم من غني تحيط به ألوان المتاع ويقيم في صدره

خوفٌ لا يهدأ. أما نعيم الآخرة فيشمل الظاهر والباطن؛ فلا جسد يتألم، ولا قلب يتحسر، ولا مستقبل يخيف، ولا ماضٍ يطارد. إنها النعمة وقد طهرت من كل ما كان يعكرها في الدنيا.

وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا

تذكر الآية من نعيم أهل الجنة الزوجات الشابات المتقاربات في السن، في صورةٍ من صور الأنس والجمال وكال الصحبة. والقرآن يخاطب الفطرة الإنسانية من غير ابتذال، ويقرر أن ما أودعه الله في النفس من ميلٍ إلى الجمال والأنس ليس شرًّا في ذاته، وإنما يفسده الخروج به عن حدوده في الدنيا. أما في الجنة فقد طُهرت اللذة من الإثم، والعلاقة من الأذى، والقلب من الغيرة المنغصة، والنعيم من كل نقص.

ولا ينبغي أن تُقرأ أوصاف الجنة بعين الشهوة الأرضية المجردة؛ لأن شهوات الدنيا ممزوجةٌ بالنقص والتعب والقلق، أما الآخرة فدار تطهيرٍ وكال. الألفاظ مألوفة، لكن الحقائق ليست نسخةً موسعةً من الدنيا؛ بل هي خلقٌ آخر يناسب دار الخلود. وكل محاولة لحبس نعيم الجنة داخل مقاييس التجربة البشرية تفوت جلال الفرق بين الدارين.

وفي قوله: ﴿أَتْرَابًا﴾ معنى التناسب والتقارب؛ فالنعيم لا يقوم على مجرد وجود الجميل، بل على الانسجام الذي يمنح الصحبة تمامها. كم من علاقات الدنيا تملك ظاهر الاجتماع وتفقد سكينته التوافق، وكم من بيتٍ اجتمعت فيه الأجساد وتباعدت الأرواح! أما الجنة فدارٌ نزع منها ما يقطع الألفة، فلا سوء فهمٍ يتراكم، ولا كلمةٌ تؤذي، ولا حبٌّ يهدده الفقد.

إن الإنسان لا يطلب اللذة وحدها، بل يطلب أن يكون محبوباً، مفهوماً، آمناً في حضرة من يحب. ولهذا كانت الصحبة من صميم النعيم، وكانت الوحشة من أشد ألوان العذاب. والجنة

ليست عزلةً باردةً يحصل فيها الفرد على ممتلكات، بل حياة أنسٍ مكتملة، يتنعم فيها الإنسان بعطاء الله وبصحبة طاهرة لا يدنسها ما كان يعكر العلاقات في الأرض.

وَكَأْسًا دِهَاقًا

الكأس الدهاق هي الممتلئة المترعة، لا نقص فيها ولا انقطاع. وفي الصورة معنى الوفرة؛ فلم تعد النعمة قطراتٍ يخشى صاحبها نفادها، بل عطاءً ممتلئاً يفيض. وكانت الدنيا دار التحديد: كل لذة فيها ناقصة، وكل كأس تفرغ، وكل شبع يعقبه جوع، وكل اجتماع يهدده الفراق؛ أما الجنة فامتلاءً لا يعقبه فراغ.

وشراب الجنة منزّه عن آفات شراب الدنيا؛ فلا يذهب عقلاً، ولا يورث إثماً، ولا يترك ألماً أو ندماً. ففي الدنيا قد تأتي بعض اللذات بوجهٍ يبتسم ثم تنصرف وقد سرقت من الإنسان صحته أو كرامته أو صفاء قلبه؛ أما لذات الجنة فلا وجه مظلم خلفها، لأنها من عطاء الله في دار الرضا. هنالك تتصالح اللذة مع الطهارة، فلا يحتاج الإنسان أن يدفع من روحه ثمنًا لما يناله جسده.

والكأس الممتلئة تذكر بأن الجنة ليست مكافأةً هزيلةً على عناء طويل، بل كرمٌ يليق بالرب الكريم. قد يظن الإنسان أنه يقدم لله كثيراً حين يصبر أو يطيع، لكنه في الحقيقة يعمل لنفسه، ويستعين في طاعته بنعم الله، ثم يتلقى فوق ذلك عطاءً لا يوازيه عمله المحدود. فالعبد يتحرك برحمة، ويعمل بتوفيق، ويقبل منه بفضل، ثم يجزى بكرم؛ وما من مرحلةٍ في الطريق إلا والمنة لله.

لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا

بعد الحداثى والأعتاب والصحة والكأس، تأتي نعمةٌ قد لا ينتبه إلى جلالها إلا من أتعبته
ضوضاء الدنيا: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا﴾. لا كلام فارغاً يبدد صفاء المجلس، ولا
كذباً ولا تكذيباً يجرح الحقيقة ويؤذي القلوب. إن الجنة طهارةٌ صوتية ومعنوية أيضاً، يسمع
أهلها ما يليق بالأمان، وتُغنى آذانهم من ضجيج الباطل.

وهذه الآية تكشف مقدار ما تصنعه الكلمات في حياة الإنسان؛ فلو كان اللغو أمراً تافهاً لما
كان غيابه نعمةً تُذكر ضمن نعيم الجنة. الكلمة قد تُثقل الروح، وتفسد مجلساً، وتفتح جرحاً،
وتزرع شكاً، وتقلب علاقةً كاملة. وكم من إنسان يعيش في وفرة مادية، لكنه يتعذب بما
يسمع من افتراءٍ واتهامٍ وتجريحٍ! لقد خلق القلب رقيقاً، والكلمات لا تمر فوقه دائماً كما يمر
الهواء؛ بعضها يستقر فيه سنوات.

واللغو هو الكلام الساقط الذي لا خير فيه، وقد لا يكون كذباً صريحاً، لكنه يستهلك العمر
ويهبط بالروح. ومن علامات رقي المؤمن أن ينظر إلى وقته ولسانه بوصفهما أمانتين؛ فلا
يجعل المجلس مقبرةً للساعات، ولا يملأ الصمت الذي يمكن أن يكون حكمةً بكلامٍ لا
ينفع. إن من يرجو جنةً لا يسمع فيها لغواً يحسن به أن يظهر شيئاً من مجالسه في الدنيا، وأن
يكون حضوره تخفيفاً للضجيج لا إضافةً إليه.

أما ﴿كِذَابًا﴾ فتحمل معنى الكذب أو التكاذب والتكذيب؛ أي لا يسمعون ما يعكر الحقيقة
أو يقيم العلاقات على الخداع. وما أشد تعب الحياة حين يضطر الإنسان إلى التحقق من كل
كلمة، ويخشى أن تكون الابتسامة ستاراً لخيانة، والمديح مقدمةً لمصلحة، والوعد نقفاً مؤجلاً.
في الجنة ينتهي هذا القلق؛ لأن القلوب طُهرت، واللسان لم يعد يحمل وجهين، ولم تعد
الحقيقة مهددةً بالمراوغة.

وإذا كانت جهنم قد ارتبطت بقوله: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا﴾، فإن الجنة تخلو من ﴿لَعْنًا وَلَا كِذَابًا﴾؛ فكأن الجزاء يوافق التكوين الأخلاقي لأهله. الذين أقاموا دنياهم على التكذيب بلغوا دار العذاب، والذين طهروا ألسنتهم وقلوبهم دخلوا داراً طاهرةً من الكذب. إن الإنسان يصنع بكلماته بيئته الأخروية، ولا تنفصل الأخلاق اليومية الصغيرة عن الصورة الكبرى للمصير.

وفي غياب اللغو نعمة السكينة؛ فالجنة ليست امتلاءً دائماً بالأصوات، بل خلوّ من الصوت الذي لا معنى له. وهذا يعلننا أن الصمت قد يكون من النعم، وأن القلب يحتاج إلى مساحاتٍ لا تقتحمها الضوضاء. لقد بالغ العصر في إحاطة الإنسان بالأخبار والتعليقات والصور حتى كاد يفقد القدرة على الخلوة، وصار صمتٌ قصيرٌ يخيفه؛ لكن الروح لا تنضج بلا هدوء، ولا تسمع أعمق حقائقها وهي غارقةٌ في لغوٍ لا ينتهي.

جَزَاءٌ مِنْ رَبِّكَ

كان عذاب الطاغين ﴿جَزَاءً وَفَاقًا﴾، أما هنا فقيل: ﴿جَزَاءٌ مِنْ رَبِّكَ﴾؛ وفي إضافة الجزاء إلى الرب معنى الرعاية والكرم والتشريف. الرب هو الذي خلق وربى وهدى وأعان، ثم قبل القليل وضاعفه، ثم تولى الجزاء بنفسه. إن المتقين لا يدخلون الجنة استقلالاً بأعمالهم، وكأن لهم على الله حقاً أوجبوه بقدرتهم؛ وإنما يدخلون برحمته، وتكون أعمالهم أسباباً شرعها لهم ووفقهم إليها.

والخطاب في ﴿رَبِّكَ﴾ موجهٌ إلى النبي ﷺ، وفيه تكريمٌ له وثبيت؛ فالرب الذي نصر دعوته بالوحي هو الذي يتولى جزاء من استجاب، ولن يضيع عنده جهد الرسالة ولا صبر المؤمنين.

كما أن الإضافة تملأ القلب قرباً: لم يقل فقط «من الله»، بل ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾؛ من الذي رباك بنعمه، وعرف ضعفك، وساقك في الطريق، وسترك حين زلت، وفتح لك باب العودة.

والربوبية هنا تجعل نعيم الجنة استمراراً للرعاية الإلهية التي بدأت في الدنيا. فالذي جعل الأرض مهاداً، والنوم سباتاً، والليل لباساً، والنهار معاشاً، وأنزل الماء وأخرج النبات، هو الذي أعد للمتقين المفاوز. نعم الدنيا كانت تربيةً وتمهيداً، ونعيم الآخرة تمامٌ للعطاء؛ غير أن الدنيا دارٌ يمتزج فيها الأخذ بالفقد، أما الآخرة فدارٌ استقر فيها الكرم لمن رضي الله عنهم.

وقوله: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ يرفع القلب من النعمة إلى المنعم؛ فلا ينبغي أن يشتاق المؤمن إلى الجنة بوصفها حدائق وكؤوساً فقط، بل لأنها عطاءٌ من الله ودار كرامته ورضاه. إن أعظم ما في النعمة أنها علامة القبول، وأعظم ما في الجنة أن أهلها يعلمون أن الله رضي عنهم. فما قيمة حديقةٍ إن بقي القلب محجوباً عن معنى القرب؟ وما قيمة كأسٍ لو لم تكن منحةً من الرب الكريم؟ إن جمال العطاء يستمد كماله من أعطائه.

عَطَاءٌ حِسَاباً

تختم الآيات بوصف الجزاء بأنه ﴿عَطَاءٌ حِسَاباً﴾؛ عطاءٌ كافياً وافياً كثيراً، بحسب ما يليق بكرم الله. وفي اجتماع «الجزاء» و«العطاء» معنى دقيق: هو جزاءٌ من حيث ارتباطه بالعمل، وعطاءٌ من حيث أنه يتجاوز مقدار العمل المحدود بفضل الله. فلو عومل العبد بعمله مجرداً من الرحمة لما استطاع أن يؤدي شكر نعمةٍ واحدة، لكن الله يتفضل، ويضاعف الحسنة، ويتجاوز عن السيئة لمن تاب، ويمنح من واسع كرمه ما لا تبلغه أعمال الأعمار القصيرة.

والحساب في الدنيا كثيراً ما يقوم على المساواة الدقيقة: تعطي بمقدار ما تأخذ، وتمنح بقدر ما قدم لك؛ أما عطاء الله فليس صفقةً تجاريةً بين طرفين متكافئين. العبد ملكٌ لله، وعمله

بقدره الله، وهدايته فضلٌ من الله، ثم يجزيه الله على ما وفقه إليه كأن للعبد فضلاً مستقلاً! إنها دائرةٌ كاملة من المنن، لا يملك المؤمن أمامها إلا أن يجمع بين العمل والتواضع؛ يعمل بكل ما يستطيع، ثم لا يرى لنفسه حقاً على ربه، بل يرجو القبول.

وفي وصفه بالعطاء حمايةً من العُجب. قد يطيل الإنسان قيامه، أو يبذل ماله، أو يصبر على أذى، ثم ينظر إلى نفسه كأنه اشترى الجنة؛ فتأتي الآية لتقول: إنها ﴿عَطَاءٌ﴾. أعمالك علامات صدقٍ وأسباب قبول، لكن الجنة أكبر من أن تكون ثمنًا تدفعه قوتك المحدودة. ولهذا كان الصالحون أشد الناس عملاً وأقلهم إدلالاً؛ لأنهم يعرفون أن توفيقهم للعمل نعمةٌ تحتاج هي نفسها إلى شكر.

وفيها كذلك حمايةٌ من اليأس؛ لأن الذي يعتمد على عمله وحده ينهار حين يرى تقصيره، أما الذي يعمل ويرجو عطاء الله فيبقى له بابٌ لا تغلقه عثراته إذا صدق في الرجوع. ليس الرجاء تركاً للعمل، بل عملٌ لا يتعلق بذاته؛ يسير صاحبه إلى الله بقلبٍ يعرف أن زاده قليل، لكنه يعرف كذلك أن رب الطريق كريم.

والعطاء الحساب يعني الوفرة والكفاية، فلا يخشى أهل الجنة نفاده، ولا يحتاجون إلى الاقتصاد فيه خوف المستقبل. كان القلق في الدنيا يلاحق النعم: ماذا لو انتهى المال؟ ماذا لو رحل الأُحبة؟ ماذا لو ذبل الجمال؟ أما هناك فالعطاء لا يقف خلفه احتمال السلب، والامتلاء لا يحمل في داخله بذرة النقص. إن الخلود ليس إضافةً زمنيةً إلى النعيم فحسب، بل هو الذي يظهر النعمة من الخوف.

التَّقْوَى: الْفَوْزُ الَّذِي يَبْدَأُ قَبْلَ الْوُصُولِ

بين ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ و﴿عَطَاءٌ حِسَابًا﴾ تمتد قصة الإنسان الذي آمن بالنبأ العظيم فغير به حياته. لم تكن التقوى شعوراً غامضاً، بل موقفاً من الوقت والمال والقوة والكلمة والشهوة. كان يستطيع أن يطغى فتوقف، وأن يكذب فصدق، وأن ينتقم فتجاوز ابتغاء وجه الله، وأن يسترسل مع الغفلة فتذكر يوم الفصل. وربما لم ير الناس تلك الانتصارات؛ لأنها وقعت في القلب، لكن الكاتب الذي أحصى كل شيء حفظها.

إن كثيراً من أعظم أعمال التقوى لا يملك مشهداً خارجياً يثير الإعجاب؛ فقد تكون خاطر سوء قاومته فلم يعرف أحد أنك انتصرت، أو كلمة جارحة حبستها، أو مالاً حراماً تركته وكان في متناولك، أو توبة بكيت فيها وحدك، أو حقاً أدّيته مع أنك قادرٌ على إنكاره. هذه الانتصارات الصامتة هي التي تبني المفاز، لأن الله لا ينظر إلى ضجيج العمل، بل إلى صدقه وموضعه من القلب.

والمتقون لا يعيشون في الدنيا محرومين من الجمال، لكنهم يرفضون أن يأخذوه من طريقٍ يفسدهم. يعلمون أن الله لم يحرم عليهم الطيب ليعذبهم، بل ليحمي فطرتهم ويؤجل لهم ما هو أطهر وأبقى. يمتنعون عن اللذة المحرمة لأنهم أعداء الفرح، بل لأنهم يؤمنون بفرج لا يعقبه ندم؛ ويصبرون على نقصٍ عابر لأنهم رأوا ببصيرة الوحي عطاءً حساباً.

ومن هنا لا يكون وصف الجنة تسليّةً خيالية للفقراء والمحرومين، بل تأسيساً لحريّة أخلاقية. الإنسان الذي يعلم أن رزقه الأكبر عند الله لا يسهل شراؤه بمكسبٍ عاجل، ولا يبيع ضميره من أجل نصيبٍ محدود. الإيمان بالمفاز يمنحه قدرةً على قول «لا» لما يفسده، وعلى الصبر حين يبدو الباطل أكثر ربحاً؛ لأنه لا يقيس المعاملة بآخر الدنيا، بل بآخر الطريق كله.

وفي المقابلة بين الفريقين نتضح هندسة السورة الأخلاقية:

الطاغون تجاوزوا الحد، والمتقون أقاموا بينهم وبين التجاوز وقاية؛ أولئك لم يرجوا حساباً، وهؤلاء عاشوا على استحضاره؛ أولئك كذبوا بالآيات، وهؤلاء صدقوا بها قبل أن يروها؛ أولئك وجدوا جهنم مآباً، وهؤلاء وجدوا المفاز؛ أولئك حرموا البرد والشراب، وهؤلاء في حدائق وكأس دهاق؛ أولئك قيل لهم: ﴿فَلَنْ نَزِيدَ كُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾، وهؤلاء مُنَحُوا ﴿عَطَاءً حِسَابًا﴾.

إنها ليست مقابلةً بين أشكال الناس وأسمائهم، بل بين منهجين في الحياة: منهج يرى الوجود بلا حساب فيطغى، ومنهج يرى الله واليوم الآخر فيتقي. ولا تكفي الانتسابات والافتات إذا لم تتحول إلى حقيقة أخلاقية؛ فقد يحمل المرء اسم الإيمان ويعيش بمنطق الطغيان، وقد يتحدث عن الجنة وهو يبني بأعماله أسباب الحرمان. القرآن لا يسمح للإنسان أن يكتفي بالهوية؛ إنه يسأله عن الأثر الذي أحدثه الخبر في حياته.

ومع ذلك لا يدخل أحد المفاز بقوته المجردة؛ فالآية ختمت المشهد بنسبة العطاء إلى الرب: ﴿جَزَاءٌ مِنْ رَبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا﴾. هنا يتعاقب الخوف والرجاء، والعمل والافتقار، والعدل والفضل. يعمل المؤمن لأنه مسؤول، ويرجو لأنه عبد ربٍّ كريم، ويخاف من ذنبه، لكنه لا ييأس من رحمة الله، ويفرح بطاعته، لكنه لا يعجب بها؛ فإذا بلغ المفاز علم أن كل خطوة في الطريق كانت محمولةً بلطفٍ لم يكن يراه كاملاً.

وبعد أن عرضت السورة جزاء الفريقين، ترتفع بنا من العطاء إلى صاحب العطاء، ومن الحكم إلى صاحب الحكم، ومن الجنة والنار إلى سلطان الرب الذي يملك السماوات والأرض وما بينهما. هناك يقف الخلق جميعاً في حضرة الرحمن، وتصطف الملائكة، ويصمت كل صوتٍ إلا من أذن له الله وقال صواباً؛ لكي يتبين أن يوم الفصل ليس يوم

النعم والعذاب وحدهما، بل يوم ظهور الملك الكامل لله، وسقوط كل كهنةٍ لم تستمد حقها
من إذنه ورضاه.

فِي حَضْرَةِ الرَّحْمَنِ: حِينَ تَصُمْتُ الْخَلَائِقَ وَيَنْطَلِقُ الْحَقُّ

﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ۚ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ۚ ذَلِكَ يَوْمَ الْحَقِّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ۚ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾

بعد أن عرضت السورة مآب الطاغين ومفاز المتقين، ارتفعت بالوعي فوق المصيرين إلى رب المصير كله، فالجنة ليست قائمة بذاتها، والنار ليست قوةً مستقلة، والجزء لا يجري ضمن قانونٍ منفصل عن مشيئة الله، وإنما الأمر كله لله: رب السماوات والأرض وما بينهما، الرحمن الذي وسعت ربوبيته الوجود، ووسعت رحمته خلقه، وخضع لحكمه الأولون والآخرون.

في هذا المقطع الأخير تبلغ السورة ذروة الجلال؛ تتلاشى الضوضاء التي بدأت بها السورة في سؤال المختلفين: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾، ويقوم الروح والملائكة صفاً، فلا يتكلم أحدٌ إلا بإذن. كأن السورة تبدأ بالسنة كثيرة تخوض في النبأ بغير علم، وتنتهي بصمتٍ كوني لا يقطعه إلا كلامٌ مأذونٌ فيه وصواب. وبين الضجيج الأول والصمت الأخير تتكشف رحلة الإنسان: تكلم في الدنيا حيث كان ينبغي أن يصغي، فإذا جاء يوم الحقيقة عجز عن الكلام إلا بما يأذن به الله.

إنه المشهد الذي تسقط فيه سيادة الإنسان المتهمة على اللغة والموقف؛ فقد كان يملك في الدنيا أن يراوغ، وأن ينتقي من الكلمات ما يخفي به الحقيقة، وأن يحول الخطاب إلى ستار، لكنه يومئذٍ لا يملك من الله خطاباً. وما أشد الفرق بين من استعمل نعمة البيان ليقول الصواب في الدنيا، ومن استعملها ليصنع من الكذب عالماً مؤقتاً؛ الأول يرجو أن يؤذن له، والثاني يرى اللغة التي طالما احتفى بها عاجزاً عن إنقاذه.

رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا

جاء هذا الوصف بعد قوله: ﴿جَزَاءٌ مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا﴾، ليعرِّفنا بعظمة الرب الذي صدر عنه العطاء: إنه رب السماوات والأرض وما بينهما. فالعطاء الذي وُعد به المتقون ليس من مالكٍ محدود، بل من رب الملك كله؛ ولذلك لا ينفد، ولا تعجز خزائنه عن أمنية، ولا يخشى صاحبه أن تنتهي النعمة لأن المعطي هو الذي لا تنفذ خزائنه.

والرب هو الخالق والمالك والمدير والمربي بنعمه؛ فربوبيته ليست مجرد نسبة الخلق إليه في البداية، بل قيام الوجود كله به في كل لحظة. السماء لا تستقل بتماسكها، والأرض لا تستقل بصلاحها للحياة، والشمس لا تتوهج بقوة خرجت عن سلطان الله، والمطر لا ينزل خارج تقديره؛ كل ما عرضته السورة من آيات الكون داخلٌ في ربوبيةٍ واحدة تفسر انتظامه ووحدته.

وفي قوله: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ إحاطةٌ لا تدع شيئاً خارج الملك. فما عرفه الإنسان وما لم يعرفه، وما بلغه بصره وما عجزت عن بلوغه أدواته، وما سمَّاه وما لم يهتد إلى اسمه؛ كله مخلوقٌ مربوب. إن جهل الإنسان بتفاصيل الوجود لا يعني وجود مساحةٍ مجهولة عن الله؛ المجهول عندنا معلومٌ لديه، والغائب عن أعيننا حاضرٌ في علمه.

وهذا الوصف يردُّ على أصل الغفلة البشرية: أن يتعامل الإنسان مع جزءٍ صغيرٍ من الملك كأنه ملكه المطلق. يضع يده على مالٍ أو أرض، ثم يقول في باطنه: هذا لي، ناسياً أن ذاته التي تنطق بالملكية مملوكةٌ لله. والملكية البشرية مؤقتة ومقيدة؛ يُسأل صاحبها كيف اكتسب وكيف أنفق، ثم يخرج من الدنيا وتنتقل الأشياء إلى غيره. أما ملك الله فلا انتقال فيه ولا زوال، فهو سبحانه يرث الأرض ومن عليها.

وإذا كان الله رب السماوات والأرض، فإن الإنسان لا يخرج عن العبودية حين يرفضها؛ إنما ينتقل من عبوديةٍ واعيةٍ كريمةٍ إلى عبوديةٍ قهريةٍ لا يعترف بها إلا بعد فوات الأوان. المؤمن يختار أن يعيش عبداً لله فيتحرر من عبادة ما سواه، أما الطاغية فيرفض الانقياد لله، ثم يتوزع قلبه بين شهواتٍ وآراءٍ وأشخاصٍ يخضع لهم من حيث لا يشعر، حتى يأتي يوم يرى فيه أن الملك كان لله وحده منذ البداية.

الرَّحْمَنُ: الرَّحْمَةُ فِي مَقَامِ الْهَيْبَةِ

يأتي اسم ﴿الرَّحْمَنِ﴾ في قلب هذا المشهد المهيّب؛ بعد ذكر جهنم والجزاء، وقبل ذكر صمت الخلق وصفوف الملائكة. وهذه مجاورةٌ تربّي الفهم على التوازن: الذي يحكم يوم الفصل هو الرحمن، والرحمة لا تناقض العدل، كما أن العدل الإلهي ليس خروجاً عن الرحمة. فمن الرحمة ألا يتساوى من أحسن بمن أفسد، وألا يُترك المظلوم إلى الأبد تحت قهر ظالمه، وألا تتحول الحرية الممنوحة للإنسان إلى فوضى بلا مسؤولية.

إن بعض الناس يتصور الرحمة عاطفةً تلغي النتائج، كأن الرحمة تقتضي ألا يحاسب أحد مهما صنع؛ لكن رحمةً تُسوي بين الجلال والضحية ليست رحمةً بالضحية، ورحمةً تترك الطغيان بلا حد تشجيعٌ له على افتراس مزيدٍ من الأرواح. الرحمة الكاملة تفتح باب التوبة قبل

الحساب، وتقيم الحجة، وتمهل، وتضاعف الحسنات، ثم تحكم بالعدل حين ينتهي زمن الاختيار.

وقد تكرر اسم الرحمن في الآيتين: ﴿الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾، و﴿إِلَّا مَنْ أَدْنَى لَهُ الرَّحْمَنُ﴾. فالهبة التي تصمت أمامها الخلائق هي هبة الرحمن، والإذن الذي يُمنح لمن يشاء يصدر عن الرحمن. وكأن السورة تمنع القلب من تصور الجلال بعيداً عن الرحمة، أو الرحمة بعيدة عن السلطان. رحمته ليست ضعفاً، وسلطانه ليس ظلماً؛ سبحانه له كمال الرحمة وكال الملك وكال العدل، وليس كمثله شيء.

ومن رحمة الله أن النبأ العظيم لم يبق محبوباً حتى يوم القيامة؛ أخبرنا به الآن، وبين لنا الطريقين، وأرانا المآبين، وفتح لنا باب العودة. إن الإنذار نفسه رحمة، والتخويف من المرصاد رحمة، ووصف المفاز رحمة، لأن القلب قد لا يستيقظ بالكلمة اللينة وحدها. ربما كانت الآية التي أبكت الإنسان خوفاً هي عين الرحمة التي أنقذته من مصيرٍ كان يمضي إليه ضاحكاً.

لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا

يقف الخلق أمام الله فلا يملكون ابتداء مخاطبته أو مراجعته إلا بما يأذن؛ فقد ظهر سلطان الملك الحق، وسقط كل استقلال متوهم. إنهم لا يملكون خطاباً كما كان بعضهم يملكه في الدنيا؛ لا يستطيعون تقديم الكلام وتأخيرهِ وفق مصالحهم، ولا صناعة قضية إعلامية تصرف الأنظار عن الحقيقة، ولا الاحتماء ببلاغةٍ تخدع السامعين.

في الدنيا قد يمتلك الإنسان الخطاب ولا يمتلك الحق؛ فيغلب صاحب الحجة الأضعف صوتاً، ويصوغ الباطل في لغةٍ براقة حتى يظنه الناس صواباً. وقد تُدفن الحقيقة تحت كثرة التكرار،

ويستبدل الناس بالسؤال: «هل هذا صحيح؟» سؤالاً آخر: «كم مرة سمعناه؟ ومن قاله؟». أما في الآخرة فتتفصل قوة البيان عن سلطة التضييل، ولا يبقى للكلمة وزنٌ إلا بإذن الله وبقدر ما فيها من الصواب.

وعدم امتلاك الخطاب يذكّر الإنسان بأن القدرة على الكلام في الدنيا أمانة مؤقتة. إنك الآن تستطيع أن تعتذر، وتستغفر، وتشهد بالحق، وتقول للمظلوم كلمةً تنصفه، وتعلم الجاهل، وتصلح بين الناس؛ وسيأتي يوم لا تملك فيه أن تنطق من تلقاء نفسك. فما أندر أن نستشعر قيمة اللسان قبل أن يُختم عليه! وما أكثر الكلمات التي نهدر بها فرصةً كان يمكن أن تصبح حسنةً باقية!

واللسان قد يكون أقصر الطرق إلى الجنة أو النار؛ كلمة صدقٍ تقال في موضعها، وكلمة زورٍ تغير مصير بريء، وسخريةٌ تهدم قلباً، وغيبةٌ يأكل بها المرء حرمة أخيه، وشهادةٌ يجسبها خوفاً على مصلحته. وكل ذلك يبدأ بحركةٍ صغيرة لا يشعر بثقلها الجسد، لكن الكتاب يحصي، ويوم الفصل يكشف أن الكلمات لم تكن هواءً؛ كانت أعمالاً لها أجسادٌ أخروية ونتائج.

ومن تدبر هذا الصمت القادم هان عليه أن يصمت اليوم حين يكون الكلام لغواً أو باطلاً. ليست كل قدرةٍ على الجواب أمراً بالجواب، ولا كل استفزازٍ يستحق أن تسلمه من وقتك ولسانك. ربما كان الصمت في بعض المواقف عبادةً تحفظ القلب من نزاعٍ عقيم، وربما كانت الكلمة في موقفٍ آخر فريضةً لا يجوز كتمانها. والميزان هو الحق: أنتكلم لتظهر نفسك، أم لتظهر الحقيقة؟ أتصمت حكمةً، أم تصمت جبناً عن واجب؟ فالصواب ليس دائماً في الكلام ولا دائماً في السكوت، بل في موافقة مراد الله.

يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا

اختلف المفسرون في المراد بالروح هنا على أقوال؛ ف قيل: هو جبريل عليه السلام، وقيل غير ذلك، والمقام على جميع الأقوال مقامُ خضوعٍ عظيم في حضرة الرحمن؛ فالروح والملائكة يقومون صفًا، ولا يتقدمون بالكلام إلا بإذن الله، فما ظن الإنسان الضعيف بنفسه؟ وأيُّ كبيرٍ يبقى في قلب من شهد ببصيرته هذا الاصطفاف؟

إن الصف صورة النظام والطاعة واستواء الموقف؛ لا فوضى، ولا تراحم على منزلة، ولا أحد يتقدم بدعوى ذاتية. والملائكة الذين ينهضون بما يأمرهم الله به، وتنزل طوائف منهم بالوحي، وتكتب طوائف منهم الأعمال، لا يغادرون مقام العبودية الخالصة، وما مكانهم إلا من طاعتهم، وما عظمتهم إلا في تمام خضوعهم لله.

وفي قيامهم صفًا درسٌ للإنسان الذي يرى العبودية انتقاصًا؛ فالملائكة لا تنقصهم الطاعة، بل هي كإلهامهم، ولا يرفعهم التمرد، بل لا يعرفون لأنفسهم مقامًا خارج الأمر الإلهي. والإنسان كلما اقترب من العبودية الصحيحة تحرر من فوضى نفسه، وانتظمت قواه في وجهةٍ واحدة، أما حين يظن الحرية خروجًا من كل حد، فإنه يفتت بين أهواء متنازعة.

والصف يذكر بصفوف الصلاة في الدنيا؛ يقف المؤمنون متجاورين، تسقط الفوارق الظاهرة، ويتجهون إلى قبلةٍ واحدة، ويتبعون إمامًا واحدًا. إن الصلاة تدريبٌ يومي على الحقيقة الكبرى: أنت عبدٌ داخل نظام العبودية، لا تقوم وحدك ولا تتقدم كما تشاء. إن صف الصلاة لا ينفع صاحبه إذا خرج منه ليعيد بناء الكبر والظلم؛ فالقصد أن تنتقل استقامة الجسد في الصف إلى استقامة القلب في الحياة.

لَا يَتَكَبَّرُونَ إِلَّا مَنْ أَدْنَى لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا

يجتمع في الكلام المقبول شرطان: الإذن من الرحمن، والصواب في القول. فلا تكفي الرغبة في الحديث، ولا المكانة، ولا القرب، ولا البلاغة؛ يجب أن يأذن الله وأن يكون الكلام حقاً. ويدخل في ذلك ما يأذن الله به من الشفاعة لمن ارتضى، فالشفاعة ليست سلطةً تمتنع الحكم من الله، بل كرامةٌ يمنحها بإذنه، وتظل خاضعةً لرحمته وعدله ورضاه.

وهنا يسقط ما تعلق به المشركون من أوهام الوسائط التي يتصورون أنها تملك عند الله استقلالاً، وتستطيع أن تفرض إرادتها على الحكم. لا أحد يملك من الله خطاباً، ولا أحد يشفع إلا بإذنه، ولا تكون الشفاعة إلا لمن أذن الله فيه ورضي. فالملك كله لله، والرجاء كله ينبغي أن يتجه إليه؛ يسأل المؤمن ربه الرحمة، ويتبع ما شرعه من الأسباب، ولا يعلق قلبه بمخلوقٍ لا يملك لنفسه شيئاً إلا بما ملكه الله.

أما ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ فترفع قيمة الكلمة الصحيحة في عالم امتلاء باللغو والتكذيب. الصواب ليس الكلام الذي يربح التصفيق، ولا الذي يوافق المزاج العام، ولا الذي ينقذ مصلحة صاحبه ساعة؛ إنه القول الموافق للحق. وقد يخسر قائله في الدنيا موقعاً أو صداقةً أو منفعةً، لكنه ادخر كلمةً يمكن أن يجد نورها في يومٍ لا ينفع فيه إلا الصواب.

ولأن الصواب شرط، فإن حسن النية وحده لا يجعل الكلام صحيحاً؛ قد يريد الإنسان الخير لكنه يتكلم بغير علم، فيضر من حيث أراد النفع. كما أن معرفة الحق لا تكفي إذا فسد القصد؛ فقد يستعمل المرء كلمةً صحيحةً ليهين بها غيره أو يستعرض علمه. والكلام الذي يرضي الله يجمع الصدق والإخلاص والحكمة: حقٌّ في مضمونه، صالحٌ في قصده، موضوعٌ في موضعه.

وكم تحتاج حياتنا إلى هذا الميزان قبل كل كلمة: هل أذن الله بهذا النوع من القول، أم حرمه؟ وهل ما أقوله صوابٌ تحققت، أم ظنٌّ أطلقه كأنه يقين؟ وهل يحقق مصلحةً معتبرة، أم أن النفس تريد لذة الظهور أو الانتقام؟ لو وقف الإنسان عند هذه الأسئلة لنجا من كثير مما يثقل كتابه، ولصار لسانه أقل حركة لكنه أكثر بركة.

ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ

تشير الآية إلى المشهد كله: ذلك اليوم هو الحق؛ ثابت الوقوع، كامل الحقيقة، تظهر فيه الحقائق التي غطتها الدنيا. وكل ما عداه من أيامٍ حقٍّ من جهة وجوده، لكنه مؤقت متغير، أما يوم القيامة فهو اليوم الذي تستقر عنده نتائج الوجود، فلا يعود وعداً ينتظر، بل حاضراً لا ينكر.

وصفه بالحق يعيدنا إلى أول السورة: اختلفوا في النبا العظيم، لكن اختلافهم لم يجعل النبا ظناً. الحقيقة لا تتحول إلى باطل لأن الناس انقسموا حولها، كما أن اجتماعهم على وهم لا يصيره حقاً. إن للحق وجوداً مستقلاً عن التصويت البشري؛ وغاية الهداية أن يخرج الإنسان من قياس الحقيقة بالناس إلى قياس الناس بالحقيقة.

في الدنيا حقائق مزوجة بالأوهام، الجمال يختلط بالذبول، والقوة بالعجز المؤجل، والاجتماع بالفراق، والوعد البشري باحتمال النكث. أما ذلك اليوم فتسقط الطبقات التي خدعت البصر، ويرى الإنسان الأشياء على حقيقتها: يرى العمل الذي سماه صغيراً وقد عظم، والمتاع الذي سماه عظيماً وقد تلاشى، والإنسان الذي احتقره في الدنيا وقد رفعه الله، وصاحب الجاه الذي خافه وقد وقف ذليلاً.

وإذا كان ذلك اليوم هو الحق، فمن الحكمة أن نزن يومنا به. ليس اليوم الحق هو اليوم الذي تحقق فيه أكثر رغباتك، بل الذي قدمت فيه ما ينفك عند ظهور الحق؛ وليس القرار الصائب دائماً ما منحك مكسباً عاجلاً، بل ما تستطيع أن تقف به بين يدي الله دون نجل. إن الآخرة لا تلغي الدنيا، لكنها تكشف وزنها الحقيقي؛ فتجعل لحظة الصدق أكبر من سنوات الخداع، وكسرة القلب من خشية الله أغلى من أعجادٍ أقيمت على الظلم.

فَنُ شَاءَ اَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ مَابًا

بعد التقرير يأتي فتح باب الاختيار: ﴿فَنُ شَاءَ﴾. لقد بين الله الطريق، وأقام الدليل، ووصف المصير، ثم ترك للإنسان أن يتخذ إلى ربه ماباً. وهذه المشيئة الإنسانية واقعة تحت مشيئة الله، لكنها مشيئة حقيقية تقوم بها المسؤولية؛ فالعبد ليس حجراً يساق بلا اختيار، ولا رباً مستقلاً بإرادته، بل مخلوقٌ منحه الله قدرةً وإرادةً وابتلاه بما يختار.

والمآب هنا ليس مكاناً يصل إليه الإنسان بقدميه، بل طريق عبودية يبدأ من القلب. يتخذ إلى ربه ماباً بالتوحيد، والتوبة، والصلاة، ورد الحقوق، والصدق، والرحمة، ومجاهدة الهوى. كل طاعة رجوع، وكل توبة خطوة، وكل ترك للظلم اقترب. والإنسان في الحقيقة راجع إلى الله حتماً، لكن الفرق بين من يعود إليه مختاراً في الدنيا، ومن يُرد إليه قهراً يوم القيامة؛ الأول يعود بقلبٍ تائب فيجد الرحمة، والثاني يأتي بعد أن أضاع زمن الرجوع النافع.

وكلمة ﴿اَتَّخِذَ﴾ توحى بالتصديق والعمل؛ فالمآب لا تصنعه الأمانة وحدها. لا يكفي أن يحب الإنسان النجاة وهو مقيم على أسباب الهلاك، ولا أن يتحدث عن الله دون أن يسير إليه. الطريق يحتاج قراراً يتجدد: أن تختار الحق حين يكلفك، وأن تترك الباطل حين يغريك، وأن تقوم بعد العثرة بدل أن تجعلها هويةً دائمة.

وليس اتخاذ المآب حدثاً واحداً يقع ثم ينتهي؛ فالقلب يتقلب، والدنيا تشتت، والهوى يجدد دعوته، ولذلك يحتاج المؤمن إلى عوداتٍ متكررة. كل صلاةٍ مآب، وكل استغفارٍ مآب، وكل مراجعة للنفس رجوعٌ من أطراف الغفلة إلى مركز العبودية. وقد يكون أعظم الخسران أن يطول اغتراب الإنسان عن الله حتى يآلف البعد، فلا يعود يشعر أنه بعيد.

وفي إضافة المآب إلى ﴿رَبِّهِ﴾ دفعٌ بعد الهيبة؛ فأنت لا تعود إلى مجهولٍ يريد إهلاكك، بل إلى ربك الذي خلقك ورباك وأنعم عليك ودعاك. إنه الرحمن الذي فتح لك الطريق، لا لأن طاعتك تزيد في ملكه، بل لأن رحمته أرادت لك النجاة. وما التوبة إلا رجوع العبد من قسوة ما صنعتته يداه إلى سعة ربه.

إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا

تتحول السورة في خاتمها إلى خطابٍ مباشر: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ﴾. لم يعد الحديث عن الطاغين بصيغة الغائب، بل عاد إلينا جميعاً؛ لأن الخاتمة تريد أن تنزع من القارئ راحة التفرج. لست خارج الآيات، ولا تقرأ مصير قومٍ لا علاقة لك بهم؛ أنت من المخاطبين بالإنذار، وأمامك فرصة لأن تحدد موقعك قبل أن يتحول الخبر إلى مشاهدة.

والإنذار إعلامٌ بالخطر قبل وقوعه مع دعوةٍ إلى اتقائه؛ فهو في جوهره رحمة. من يرى إنساناً يمشي نحو هاوية ثم لا يحذره ليس رحيماً، أما من يرفع صوته لينقذه فقد يزعجه لكنه يحبه. وهكذا تأتي آيات الوعيد شديدة لأنها تناسب خطراً شديداً؛ لا تداعب غفلة الإنسان، بل تصدمها حتى يستيقظ.

ووصف العذاب بأنه ﴿قَرِيبًا﴾ يهدم وهم المسافة. قد تبدو القيامة بعيدةً في حساب التاريخ، لكنها قريبةٌ بوعد الله، وكل آتٍ قريب، كما أنها قريبةٌ من كل إنسان لأن الموت بوابته

الشخصية إلى الآخرة. كم بينك وبين خروجك من الدنيا؟ لا أحد يعلم. ربما خطط المرء لعقود، وبين يديه ساعات لا يدري أنها الأخيرة؛ ولهذا لا تملك التوبة وقتاً مضموناً غير اللحظة التي أنت فيها.

والقرب لا يُقاس بطول الأمل؛ فالإنسان يستطيع أن يتخيل عمراً مديداً فيتوهم أنه يملكه، لكن الأمنيات لا تمتد في الأجل. إن أخطر ما يصنعه التسويف أنه يحول المجهول إلى ضمان: سأعود غداً، سأصلح بعد أن تنتهي هذه المرحلة، سأرد الحق حين تتحسن ظروفي. وهكذا يبني المرء توبته على يومٍ لم يُمنح له بعد، ويضيع اليوم الذي هو ملكه الوحيد.

ولا يعني استشعار القرب أن يترك الإنسان مشروعات الدنيا أو يفقد قدرته على التخطيط؛ فقد يعمل لعقود وهو مستعد للموت الليلة. التناقض ليس بين طول المشروع وقرب الأجل، بل بين العمل المسؤول والغفلة. المؤمن يغرس الشجرة كأنه سيعيش، ويصحح قلبه كأنه سيرحل؛ لأن عمارة الدنيا من التكليف، والاستعداد للآخرة هو الذي يمنح العمارة أخلاقها.

يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ

هنا يلتقي الإنسان بعمله: ينظر ما قدمت يداه. لم تقل الآية فقط: يُخْبَرُ بما عمل، بل ينظر؛ يصير الماضي حاضراً أمامه، وتتحول الأفعال التي ظنها انقضت إلى مشهدٍ يواجهه. والمرء لفظٌ يشمل كل إنسان؛ فالموعود فرديٌّ بقدر ما هو جماعي، والكاتب كتابك، والعمل عملك، والنظر نظرك.

ونسب التقديم إلى اليدين لأنهما أداة كثيرٍ من الأعمال، ولأن التعبير يجعل العمل شيئاً أرسله الإنسان أمامه. نحن لا نترك أعمالنا خلفنا كما نتوهم؛ نحن نبعثها إلى المستقبل، فتسبقنا

إلى الآخرة وتنتظر وصولنا. كل يوم حزمة من المقدمات، وكل قرار رسول نرسله إلى الموعد، حتى إذا وصلنا وجدنا ما بعثناه.

وما أصدق السؤال الذي ينبغي أن يطرح عند نهاية كل يوم: ماذا قدمت يداي؟ لا ماذا حصلت، ولا كم امتد اسمي، بل ما الذي سبقني إلى الله؟ ربما ملأ الإنسان يومه حركة ولم يقدم شيئاً، وربما جلس عاجزاً عن كثير من العمل لكنه قدم صبراً وذكراً ورضاً. ليست قيمة اليوم في ازدحامه، بل في نوع ما خرج منه إلى الكتاب.

واليدان قد تقدمان ما يسرّ وما يحزن؛ تبنيان بيتاً أو تهدمان حياة، تمسحان دمة أو تصنعانها، تكتبان كلمة هداية أو افتراء، تمتدان بصدقة أو بظلم. والنعمة الواحدة قابلة لأن تكون جسراً إلى المفاز أو شاهداً في الحساب؛ فليس السؤال: ماذا مُنحت؟ بل: ماذا صنعت بما مُنحت؟

والعمل الذي ينظر إليه المرء لا يقتصر على آثاره المباشرة؛ فقد يقول كلمة فتسافر بعده في الناس، أو يؤسس ظلماً يستمر، أو يفتح باب خيرٍ يهتدي به آخرون. إن بعض الأعمال أطول عمراً من أصحابها، ولذلك يحتاج الإنسان أن يتأمل ما يطلقه في العالم؛ فقد يموت جسده وتظل آثاره تكتب له أو عليه.

ومع رهبة المشهد، فإن الآية دعوة إلى العمل لا إلى الشلل. ما دمت في الدنيا، تستطيع أن تقدم ما تحب أن تراه: صدقاً بدل الكذب، وإصلاحاً بدل الإفساد، ورحمةً بدل القسوة، وتوبةً تحوّلها أثراً أسود. ليس المطلوب أن يكون ماضيك بلا خطأ، فهذا لا يكون للبشر، بل أن يكون حاضرك صادق الرجوع، وأن تلقى الله وقد كرهت الذنب وجاهدت في إصلاح ما استطعت.

وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا

تنتهي السورة بأمنية موجعة: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾. الإنسان الذي خلق من تراب، ثم نفخ الله فيه الروح، ومنحه العقل والبيان والاختيار، يتنى بعد أن رأى عاقبة كفره لو بقي في مقام المادة التي لا تكلف ولا تُحاسب. لقد كانت إنسانيته أعظم منحة، لكنه استعملها في مقاومة الغاية التي خلق لها، فتحولت المنحة في شعوره إلى عبء يتنى لو لم يُمنحها.

إنها ليست أمنية التواضع، بل أمنية العدم والفرار من الجزاء، ولكنها تأتي بعد أن انتهى زمن الفرار. في الدنيا كان يستطيع أن يقول: يا ليتني كنت تائباً، ثم يجعل أمنيته فعلاً، وكان يستطيع أن يعود من طغيان النفس إلى تراب العبودية، وأن يتذكر أصله فيكسر كبره. أما هناك فلم يبق إلا التمني الذي لا يغير شيئاً.

والتراب الذي استعلى عليه الإنسان يصير أمنيته الأخيرة. كان يمشي فوقه مزهواً، وبينى من خيرات ملكه، ويحتقر من لا يملك قطعةً منه، ثم يكتشف أن التراب أطوع لله منه؛ لم يكذب بآية، ولم يظلم، ولم يحجد الحساب. إن الكبر كله نسيانٌ للأصل، ولو تذكر الإنسان أنه خرج من تراب وسيعود إليه، لما بالغ في رفع نفسه فوق عباد الله.

وقد يفهم التمني على ضوء ما ورد في شأن القصاص بين البهائم ثم صيرورتها تراباً، فيتمنى الكافر لو كان مثلها فلم يُبعث للتكليف والجزاء. والمشهد، على اختلاف ما يُذكر في تفصيله، يحمل المعنى القطعي الذي ختمت به الآية: حسرة الكافر حين يرى عمله ومصيره، ويتمنى ما لا سبيل إليه.

إن آخر كلمة في السورة ليست «العذاب» بل «تراباً»، وكأن البناء كله يعود بالإنسان إلى أصله الذي نسيه. بدأ متسائلاً مستكبراً عن النبأ العظيم، وانتهى متمنياً أدنى صور الوجود

المادي. بين السؤال والأمنية قامت دلائل الكون، وجاء يوم الفصل، وظهر المرصاد والمغاز، ووقف الروح والملائكة صفاء فلم تبق للكافر حجة، وإنما بقيت الحسرة.

وهذه النهاية لا تريد أن تترك المؤمن في اليأس، بل أن توقظه قبل أن تصير أمنيته مستحيلة. أنت الآن ترابٌ أكرمهُ الله بالروح والعقل والوحي، وتستطيع أن تجعل هذا التكریم طريقاً إلى رضاه. تستطيع أن تسجد بالجهة التي خلقت من تراب، وأن ترد قلبك إلى تواضع أصله، وأن تقول قبل فوات الأوان: يا ليتني كنت عبداً صادقاً، ثم تبدأ الصدق من ساعتك.

مِنَ السُّؤالِ إِلَى المآبِ

هكذا تُحكم السورة دائرتها: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ في البداية، و﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مآبًا﴾ قرب النهاية. بدأت بالسؤال عن الخبر، وانتهت بالدعوة إلى اتخاذ الطريق؛ لأن المعرفة في القرآن ليست غايةً مستقلة عن العمل. لا قيمة لأن تعرف اسم النبا العظيم إن لم يتغير مآب قلبك، ولا يكفي أن تقر بقيام الساعة إذا بقيت اختياراتك مبنيةً على أنها لن تقوم.

وبدأت السورة باختلاف الناس في النبا، وانتهت بتسميته ﴿الحَقُّ﴾؛ فالاختلاف مرحلة بشرية، أما الحقيقة فثابتة. وبدأت بضجيج التساؤل، وانتهت بصمت الملائكة والخلق؛ وبدأت بالأرض مهاداً والجبال أوتاداً، ثم انتهت بالسماء أبواباً والجبال سراباً، وبدأت بالماء الثجاج والجنات الألفاف، ثم فرقت بين حميم الطاغين وحدائق المتقين. كل لفظ في السورة يتجه إلى هذا الفصل العظيم، وكل مشهد يضع الإنسان أمام اختياره.

وفي آخر الطريق لا يبقى أمام القلب إلا سؤال واحد: أيُّ شيء أقدمه بيدي الآن؟ فاليوم هو المسافة الوحيدة التي نستطيع العمل داخلها، أما الأمل فقد صار ككأب، والغد لم يُمنح

لنا، والآخرة تقترب بخطوات أعمارنا. ومن رحمة الله أن جعل المآب إليه مفتوحاً قبل أن
يكون المحيىء إليه قهراً؛ فمن عاد اليوم بالتوبة وجد الرحمن، ومن أصر حتى رأى ما قدمت
يداه لم يملك إلا أمنية التراب.

حِينَ يَتَحَوَّلُ النَّبِيُّ إِلَى حَيَاةٍ

ليست سورة النبأ مجموعةً من المشاهد المتباعدة، يبدأ بعضها بسؤالٍ وينتهي بعضها بجنةٍ أو نار، وإنما هي بناءٌ واحدٌ يأخذ الإنسان من غفلته الأولى، ويطوف به في آيات الكون، ثم يقيمه أمام يوم الفصل، ويريه نهاية الطريقين، ويتركه عند عتبة الاختيار الأخيرة: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا﴾. وما بين السؤال والمآب رحلةٌ قلبٍ أراد القرآن أن ينقله من سماع الخبر إلى معايشة أثره، ومن معرفة القيامة إلى بناء الحياة على يقينها.

بدأت السورة بالناس وهم يتساءلون عن النبأ العظيم، وكأنهم يقفون خارج الحقيقة يتجادلون فيها، ثم لم تلبث أن نقلتهم من مقاعد المتفرجين إلى قلب المشهد: ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾. إنها لا تسمح للإنسان أن يعامل الآخرة بوصفها موضوعاً للنقاش البعيد؛ فالذي يتساءل عنها اليوم هو نفسه الذي سيأتي غداً، والذي يختلف فيها الآن سيقف داخلها حين ينتهي الاختلاف، والذي يسأل عن إمكان البعث سيُبعث ويعاين الجواب في جسده وسمعه وبصره.

ومن هنا نفهم أن السؤال الأول لم يكن طلباً للمعلومة وحدها، بل كشفاً للموقف الذي اتخذته الإنسان من المعلومة. لقد جاءهم خبرٌ لو آمنوا به لتغير ميزان حياتهم، ولهذا اختلفوا فيه؛ فالقيامة لا تهدد فكرةً فحسب، وإنما تهدد سلطان الهوى، وتسحب من الطاعني وهم الإفلات، ومن الغافل لذة التأجيل، ومن الإنسان اعتقاده أنه يستطيع أن يعيش كما يشاء

ثم ينتهي كل شيء عند التراب. إن الخبر عظيمٌ لأن أثره عظيم، ولأن التصديق به لا يترك زاويةً من الحياة على حالها.

الْكُونُ لَيْسَ صَامِتًا

حين عرضت السورة الأرض مهادًا، والجبال أوتادًا، واخلق أزواجًا، والنوم سباتًا، والليل لباسًا، والنهار معاشًا، والسموات شدادًا، والشمس سراجًا وهاجًا، والماء ثجاجًا، والجنات ألفافًا، لم تكن تعدد نعمًا متناثرة؛ كانت تبني حجةً كاملةً على وحدانية الله وقدرته وحكمته. فالكون في سورة النبأ ليس خلفيةً صامتةً لحياة الإنسان، بل شاهدٌ يقف حوله من كل جهة، ويردُّ على إنكاره قبل أن ينطق به.

إن الأرض التي يستقر عليها الإنسان تقول له: أنت لم تمهد لنفسك موضع وجودك. والجبال تقول: لست أنت الذي أقام توازن العالم. والنوم يقول: لست سيد وعيك على الإطلاق. والليل والنهار يقولان: زمنك يجري ضمن نظامٍ لم تضعه. والسماء تقول: فوق قدرتك بناءً لا تحيط به. والشمس تقول: تستمد حياتك من سراجٍ لا تملك إيقاده. والمطر يقول: رزقك ينزل من أبوابٍ لا تتحكم بها وحدك. والنبات يقول: إن الحياة تخرج من موضع ظننته جامدًا، فلا تستبعد خروجك من القبر.

وكلما ازداد الإنسان علمًا بهذه الآيات، كان ينبغي أن يزداد تواضعًا، لأن العلم لا يخلقه مالكا للكون، بل يكشف له مقدار إحكام الكون الذي يعيش داخله. إنه يكتشف القوانين، لكنه لم يستنّها، ويفيد من الأسباب، لكنه لم يودع فيها قوتها؛ ويزرع الحبة، لكنه لا يخلق فيها سر الحياة. فما أشد غرابة أن تتحول معرفة الصنعة إلى حجابٍ عن الصانع، وأن يزداد الإنسان إدراكًا للتفاصيل ثم يقل إحساسه بالمنة!

إن الغفلة لا تعني غياب الآيات، بل غياب العين التي تقرأها؛ فكم من إنسان عاش عمره تحت السماء ولم يرفع قلبه إليها، وشرب الماء ولم يعرف الرحمة التي نزلت معه، واستيقظ من نومه آلاف المرات ولم يرب في عودته وعيه صورةً تقرب له معنى البعث. إن المؤلف قد يكون أعظم المعجزات التي حجبها العادة، والتدبر هو أن نسترد دهشة القلب دون أن نفقد رصانة العقل.

يَوْمَ الْفَصْلِ وَاسْتِرْدَادُ الْحَقِيقَةِ

ثم سَمَّتِ السورة القيامة باسمها الذي يلائم مقصودها: ﴿يَوْمَ الْفَصْلِ﴾. وفي هذا الاسم يمكن جوابٌ عن كثيرٍ من أسئلة الحياة؛ فالدنيا دار اختلاطٍ وتأجيل، وقد يلتبس فيها الحق بالباطل، والعدل بالقوة، والكرامة بالشهرة، والنجاح بالثراء. يرى الإنسان ظالماً ممتد السلطان، وصادقاً محاصراً، ومظلوماً مات قبل أن يُنصف، فينشأ في قلبه سؤال: أين تذهب كل هذه القصص التي لم تكتمل؟

يأتي يوم الفصل ليقول: لا تذهب. كل شيء ينتظر موضعه في الحكم الأخير؛ فالدمعة التي سقطت في خفاء، والكلمة التي هدمت إنساناً، واليد التي امتدت بالعتاء، واليد التي امتدت بالبطش، والخيانة التي نجحت في التخفي، والتوبة التي لم يعلم بها أحد؛ كلها محفوظة. إن ظاهر التاريخ ليس آخر التاريخ، وصوت المنتصر في الدنيا ليس حكم الله، وغياب العدالة العاجلة لا يعني غياب العدل المطلق.

وفي يوم الفصل تعود الكلمات إلى معانيها الصحيحة؛ فلا يستطيع الظلم أن يواصل ارتداء اسم المصلحة، ولا الجبن أن يسمى حكمة، ولا النفاق أن يحتمي باسم المرونة، ولا الاستئثار أن

يتزين بثوب الاستحقاق. تُرفع الألقعة، وتبلى السرائر، ويجد الإنسان نفسه أمام حقيقة عمله، لا أمام الرواية التي كتبها عن نفسه.

وهذا اليقين لا يدعو المؤمن إلى ترك العمل من أجل العدل في الدنيا، بل يمنحه القوة ليعمل دون أن يعبد النتائج العاجلة. يقاوم الظلم بما يستطيع، ويقول الحق، ويرد الحقوق، ويقيم من العدل ما يقدر عليه؛ لكنه لا ينهار إذا لم ير الثمرة كاملةً، لأنه يعرف أن الدنيا ليست الصفحة الأخيرة. إن إيمانه بيوم الفصل يمنعه من اليأس كما يمنعه من الظلم؛ فلا يظلم بحجة أن العالم ظالم، ولا يقنط لأن الحق خسر جولة.

حِينَ تَحُولُ الْأَوْتَادُ إِلَى سَرَابٍ

قدمت السورة الجبال أولاً بوصفها أوتاداً، ثم أعادتها يوم القيامة سراباً. وبين الصورتين درسٌ في حقيقة الثبات: ما ثبته الله لحكمةٍ يزيله لحكمة، وما يبدو للعين أبدياً يحمل في داخله أجلاً لا نراه. الجبال التي قاس بها الإنسان معنى الرسوخ ستُسِيرُ، والسماء الشديدة التي ظلمته ستُفتَحُ أبواباً؛ فلا شيء من صورة العالم المألوف يملك البقاء بذاته.

وهنا تنكشف جبال الوهم التي يبنينا البشر في قلوبهم: جبل المال، وجبل السلطة، وجبل الشهرة، وجبل العصبية، وجبل الشخص الذي يُظن أنه لا يُغلب. تبدو هذه القوى راسخةً ما دام نظام الدنيا قائماً، لكن يوم الفصل يكشف أنها كانت تستمد وجودها من الإمهال، لا من الاستقلال. وما أسرع أن يتحول الجبل إلى سراب حين يأتي أمر الله.

ليس المطلوب أن يترك الإنسان الأسباب، بل ألا يمنحها مقام الربوبية؛ يستعمل المال ولا يعبد، ويقبل المسؤولية ولا يتأله بها على الخلق، ويحب الناس ولا يجعل رضاهم قبل رضا

الله، وبني بيته وهو يعلم أن البيت محطة. المؤمن لا يحتقر الدنيا، لكنه يرفض أن يخدع بحجمها القريب؛ يعطي كل شيء قدره، ولا يعطي الفاني معنى الباقي.

ومن عرف أن الجبال تُسَرَّ لم يبع ضميره خوفاً من قوة زائلة؛ ومن عرف أن السماء تُفْتَح لم يظن أن أبواب البشر المغلقة هي نهاية الطريق؛ ومن عرف أن الناس يأتون أفواجا لم يغتر بكثرة السائرين في الباطل. إنه يقيس الأشياء بميزان الآخرة، فتعود القوى الأرضية إلى أجامها، ويكبر في قلبه ما عظمه الله.

مِنَ الطُّغْيَانِ إِلَى الْمُرْصَادِ

لم تقلل السورة إن جهنم مآب الخطّائين الذين زلوا ثم ندموا، بل قالت: ﴿لِلطُّغْيَانِ مَأْبًا﴾. فالطغيان حالة مجاوزة للحد تنغذى من الإصرار، ويقوم في أصلها وهم خطير: أن لا حساب. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾؛ ومن لا يستحضر الحساب قد يجعل قدرته مقياس الحق، وشهوته مصدر القيمة، ونجاته من رقابة الناس دليل براءته.

إن الطغيان السياسي صورةٌ كبرى ظاهرة، لكنه يبدأ قبل القصور والجيوش في انحراف داخل النفس؛ حين يرفض الإنسان أن يقف عند حد، أو يرى لنفسه حقاً لا يراه لغيره، أو يغضب إذا حوسب مع أنه يحاسب الجميع. قد يطغى في بيته، وفي خصومته، وفي ماله، وفي معرفته، وفي جماعته؛ وكل طغيان كبير كان يوماً بذرةً صغيرة سقتها التبريرات.

والمرصاد يعلن أن الطريق الأخلاقي لا ينفصل عن نهايته. إن الطاغية لا يفلت لأنه وصل إلى آخر عمره بلا عقوبة ظاهرة؛ فقد تكون نجاته العاجلة جزءاً من محنته، يزداد بها توهماً واستدراجاً. والله يمهّل ولا يهمل، ويفتح باب التوبة قبل المصير، لكن الإمهال إذا لم يوقظ الشكر قد يزيد القلب قسوة.

ثم يأتي الميزان: ﴿جَزَاءٌ وَفَاقًا﴾. لا ظلم في الحكم، ولا عقوبة بغير استحقاق، ولا اختلاط بين المصير والتائب، ولا بين من قامت عليه الحجة ومن خفيت عنه، ولا بين النيات والظروف والمقادير. الله أعلم بعباده من أنفسهم، وأعدل من أن يضع عملاً في غير موضعه؛ وما أخبر به من شدة العقاب ينبغي أن يزيدنا خوفاً من أسباب العذاب، لا اعتراضاً على حكم العليم الحكيم.

وفي قلب المشهد يقف الكتاب: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾. هذه الآية وحدها كفيلة بأن تعيد تشكيل علاقتنا بالصغائر، فلا كلمة تضيع، ولا نظرة تُنسى، ولا أثر يذوب لأن صاحبه تجاوزه. لكنها كذلك سكيئة للمحسن والمظلوم: لا معروف يضيع، ولا ألم يُجهله الله، ولا تضحية تصبح عدماً لأن الناس لم يروها. إن الإحصاء الإلهي عدلٌ يخيف المسيء ويؤنس صاحب الخير.

مِنَ التَّقْوَى إِلَى الْمَفَازِ

وفي الجهة الأخرى يشرق الوعد: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾. لم تقل السورة إن لهم نجاةً فقط، بل مفازاً، فهم ينجون مما يخافون ويفوزون بما يرجون. كانت التقوى في الدنيا وقايةً من المعصية، فصارت في الآخرة وقايةً من النار، وكانت مجاهدةً في القلب، فصارت حدائق وأعاباً، وكانت صبراً على حدود الله، فصارت عطاءً لا تحده مقاييس البشر.

والتقوى ليست عزلةً عن الحياة، بل حضور الله في تفاصيلها؛ أن تذكركه عند القوة لا عند الضعف وحده، وعند القدرة على المعصية لا بعد انتقضائها، وفي حق الإنسان الذي لا يملك أن ينتزع حقه منك. قد يظهر التدين في الشعائر، لكن التقوى تُختبر عند تضارب المصلحة

مع المبدأ، وحين يستطيع المرء أن يظلم بلا عقوبة عاجلة، وحين تكون الأمانة أثقل من الخيانة.

والمثقون ليسوا قومًا بلا ذنوب، وإنما هم قومٌ لم يجعلوا الذنب وطنًا؛ إذا ابتعدوا عادوا، وإذا سقطوا نهضوا، وإذا كشفت لهم الآية عيباً لم يحولوها إلى أداة لإدانة الآخرين، بل جعلوها مرآةً لإصلاح نفوسهم. يعرفون أن الكمال لله، وأن العبد لا ينبغي بدعوى الطهر، بل بصدق الافتقار والتوبة.

ثم تُنسب الجنة إلى كرم الله: ﴿جَزَاءٌ مِنْ رَبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا﴾. فهي جزاءٌ لأن العمل سببها، وعطاءٌ لأن فضل الله أعظم من العمل. العبد يعمل بتوفيق الله، ويثبت برحمته، ويقبل عمله بفضله، ثم يدخل الجنة بكرمه؛ فلا موضع للعجب، كما لا موضع للقنوط. يعمل المؤمن كأن النجاة متعلقةٌ بصدقه، ويرجو كأن لا عمل له، فيجتمع في قلبه بذلٌ لا يتوقف وافتقارٌ لا يدعى.

الْجَنَّةُ الَّتِي لَا يَبْلُغُهَا اللَّغْوُ

من أعمق أوصاف نعيم الجنة في السورة قوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا﴾. فبعد الحداثق والأعنان والكأس، تذكر طهارة السمع والمجالس. وهذا يكشف أن الإنسان لا يتعذب بالجسد وحده، بل بما يسمع، وأن الكلمة قد تكون منغصاً للنعم حتى لو اكتملت الأشياء المادية.

كم أرهق اللغو أرواحاً، وكم هدم الكذب من ثقة، وكم حولت كلمةً بيتاً آمناً إلى موضع ريبة، وكم عاش إنسانٌ محاطاً بالنعم لكنه فقد سكينته بسبب ألسنةٍ لا تثقي الله! لذلك كان

من تمام الجنة أن تُطهر من الضوضاء الأخلاقية؛ لا افتراء، ولا غيبة، ولا خداع، ولا خطابٌ يحمل وجهاً ويخفي آخر.

ومن يرجو هذه الجنة ينبغي أن يبدأ بتطهير مجلسه ولسانه؛ يقلل من الكلام الذي لا معنى له، ويتثبت مما ينقل، ويعرف أن الأعراض ليست مادةً للتسلية، وأن وقت الإنسان أثمن من أن يُحرق في جدلٍ لا ينفع. ليس الصمت فضيلةً مطلقة، كما أن الكلام ليس فضيلةً مطلقة؛ الفضيلة أن تصمت عن الباطل، وتنطق بالحق في موضعه، وتقول صواباً.

لقد بدأت السورة بتساؤلٍ لم يكن كله طلباً للحق، وانتهت بقولٍ لا يقبل إلا إذا كان صواباً؛ فكأنها رحلة إصلاح للسان أيضاً: من الضجيج حول الحقيقة إلى الصمت أمام الله، ومن التكذيب إلى القول بالمأذون، ومن اللغو إلى الكلمة التي تستمد قيمتها من موافقتها للحق.

فِي الصَّفِّ الَّذِي لَا يَمْلِكُ الْخَطَابَ

تبلغ الهيبة غايتها حين يقوم الروح والملائكة صفّاً، لا يتكلمون إلا بإذن الرحمن. إذا كان هؤلاء العباد المكرمون يقفون في هذا الخضوع، فما شأن الإنسان الذي ملأ الدنيا ادعاءً وخصومة؟ هناك يسقط وهم السيطرة على اللغة، فلا يستطيع أحد أن يصوغ باطله في حجة، أو يستدرك على حكم الله، أو يتقدم بشفاعةٍ لم يأذن بها.

والاسم الذي يتكرر في هذا المقام هو ﴿الرَّحْمَنُ﴾؛ لتعلم القلوب أن الصمت في حضرته ليس صمتاً أمام ظلم أو بطش، بل أمام كمال الرحمة والعدل والملك. لا يتكلمون لأن الحكم قد أحاط بكل شيء، لا لأن الحقيقة ممنوعة؛ ولا يعترضون لأن أحداً ظلم، بل لأن كل شيء وُضع في موضعه الذي لا يملك مخلوق أن يقيمه بذلك الكمال.

إن رحمة الله ليست إلغاءً للعدل، وعدله ليس نقيضاً للرحمة. فتح للتائبين أبوابه، وأرسل الرسل، وأنزل الآيات، وأمهل، وستر، وضاعف الحسنات، ثم أقام يوم الفصل حتى لا يصير الإمهال فوضى، ولا تكون حرية الإنسان ترخيصاً له في تحطيم الآخرين بلا نهاية. ولذلك يكون المؤمن بين الخوف والرجاء: يخاف عدل الله في ذنبه، ويرجو رحمته في توبته.

ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ

كل السورة تتجمع في هذا الإعلان: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾. الحق في ثبوت وقوعه، والحق في انكشاف الحقائق فيه، والحق في عدله، والحق في بقاءه بعد زوال أيام الدنيا. نحن نعيش اليوم داخل عالم تختلط فيه الحقيقة بالصورة، والقيمة بالشهرة، والجوهر بالمظهر؛ أما هناك فلا تبقى للأشياء إلا حقائقها.

سيعلم المرء أن ما حسبه خسارةً في سبيل الله لم يكن خسارة، وأن ما حسبه فوزاً بمعصيته لم يكن فوزاً، وأن كلمة الناس لم تكن حكماً نهائياً، وأن ما عند الله هو الذي بقي. ستبدل أجام الأشياء: يكبر العمل الخفي الذي استصغره صاحبه، ويصغر المجد الأرضي الذي ملأ العيون، ويظهر أن القلب السليم كان أتمن ما يستطيع الإنسان أن يحمله.

وما دام ذلك اليوم هو الحق، فإن أعقل الناس من جعل حاضره تابعاً له. يسأل نفسه قبل القرار: كيف يبدو هذا عند سقوط الأقنعة؟ وهل أستطيع أن أراه في سَكَّابِي دون أن أتمنى الفرار منه؟ إن استحضار الآخرة لا يحرم الإنسان من الحياة، بل يحرره من خداع اللحظة، ويمنحه بصرًا يرى النهاية وهي لا تزال غيباً.

الْمَأْبُ الْإِخْتِيَارِيُّ قَبْلَ الْمَأْبِ الْإِضْطِرَارِيِّ

قال الله: ﴿فَنُ شَاءَ اَتَّخِذَ اِلَى رَبِّهِ مَآبًا﴾. وهذه هي مساحة الحرية التي مُنحت للإنسان قبل يوم الصمت؛ يستطيع الآن أن يعود، وأن يغير، وأن يحو بالتوبة ما استطاع، وأن يصلح من آثار خطئه، وأن يختار وجهته. أما يوم القيامة فالجميع عائدون إلى الله، لكن العودة يومئذٍ ليست اختياراً يترتب عليه القبول؛ لقد انتهى زمن الزرع وجاء زمن الحصاد.

والعودة إلى الله ليست سفرًا في المكان، بل تحولًا في مركز القلب: من الهوى إلى الوحي، ومن طلب رضا الخلق إلى ابتغاء رضا الله، ومن تبرير النفس إلى محاسبتها، ومن الاستعلاء إلى العبودية. قد يكون الإنسان واقفًا في محرابه وجوهره بعيد، وقد يكون منكسرًا على باب التوبة فيكون أقرب مما يتصور؛ فالله يعلم اتجاه القلوب قبل حركة الأجساد.

والمآب لا يُتخذ بالأمنيات؛ يحتاج إلى صدقٍ له كلفة. قد يقتضي رد مال، أو اعتذارًا، أو قطع عادة، أو ترك صحبة، أو احتمال سخرية، أو صبرًا على طريق طويل. لكن كل كلفةٍ في الرجوع صغيرةٌ أمام حسرة من يقول حين لا ينفع الرجوع: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تَرَابًا﴾.

إن التوبة ليست اعترافًا لفظيًا فحسب، بل تغييرٌ في الاتجاه. من كان يؤذي ثم استغفر بلسانه واستمر في الأذى لم يغير طريقه، ومن أخذ حقوق الناس ثم بكى دون أن يردها وهو قادر لم يستكمل معنى الرجوع. لا يطلب الله من العبد عصمةً مضت، بل صدقًا حاضرًا يفعل ما يستطيع: يندم، ويقنع، ويعزم، ويرد الحقوق أو يطلب المسامحة حيث يلزم ويقدر.

مَا قَدَمْتُ يَدَاهُ

تضعنا خاتمة السورة أمام الحقيقة الشخصية التي لا يستطيع أحد أن يحملها عنا: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَمْتُ يَدَاهُ﴾. إن حياتنا ليست ما نستهلكه من أيام، بل ما نقدمه خلالها؛

والأعمال لا تمضي خلفنا، بل تسبقنا. نحن كل يوم نرسل إلى الآخرة جزءاً من سيرتنا، حتى إذا وصلنا وجدنا الرسائل كلها مفتوحة.

هناك سيرى الإنسان أثر الكلمات التي نسيها، والقرارات التي اتخذها في دقائق، والمواقف التي لم يظن أنها تستحق الوقوف. سيرى الرحمة التي خفف بها الماء، والظلم الذي استصغره لأن ضحيته لم تستطع الدفاع عن نفسها، والوقت الذي أنفقه، والقلوب التي مر بها: أتركها أكثر نوراً أم أكثر انكساراً؟

ومن الحكمة أن يتعلم الإنسان النظر إلى عمله قبل يوم النظر؛ أن يقف مع نفسه كل مساء ويسألها بلا تزييف: ماذا قدمت اليوم؟ أي شيء ازداد في كفاي؟ هل صرت أقرب إلى الله، أم أن الأيام تمر وتعلمني في الاتجاه المضاد؟ فالمحاسبة في الدنيا رحمة؛ لأنها محاسبة يمكن بعدها التصحيح، أما كشف الصحيفة في الآخرة فإظهار لشيء اكتمل زمنه.

ولا ينبغي أن تتحول المحاسبة إلى احتقار للنفس يقعدها عن الخير، بل إلى يقظة تدفعها إلى العمل. المؤمن لا يقول: لقد فسد ماضي فلا فائدة، وإنما يعلم أن التوبة نفسها من أعظم ما يمكن أن تقدمه يده. وقد يجعل الله صدق الرجوع نهاية تضيء أعواماً من التيه؛ فهو سبحانه لا يتعاضمه ذنب أن يغفره لمن تاب، ولا يضيع عنده قلب عاد إليه منكسراً.

يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً

تعود السورة في كلمتها الأخيرة إلى التراب؛ الأرض التي جعلت مهاداً في البداية تصبح موضوع أمنية الكافر في النهاية. خلق الإنسان من تراب، وارتفع بالعقل والوحي والتكليف، لكنه حين خان معنى هذا الارتفاع تمنى لو بقي بلا مسؤولية. لقد كان يستطيع أن يتواضع في الدنيا لأصله، فاختار الكبر؛ فلما رأى عاقبته تمنى الأصل دون التكريم الذي ضيعه.

ما أفسى الأمنية حين تأتي بعد انقضاء القدرة على تحقيق البديل! في الدنيا يستطيع الإنسان أن يقول: ليتني أتوب، ثم يتوب؛ ليتني أرد المظلمة، ثم يردها؛ ليتني أبدأ، ثم يبدأ. أما في الآخرة فتصير «ليت» قبراً للحسرة، لا جسراً إلى التغيير. ومن هنا فإن كل أمنية خير تمر بقلبك اليوم ينبغي أن تتحول إلى خطوة قبل أن يأتي زمن الأمنيات العقيمة.

إن التراب الذي يتنى الكافر أن يكونه لم يعص الله، أما الإنسان فقد مُنح منزلة الاختيار. وهذه المنزلة خطرة وجليلة معاً؛ بها يمكن أن يهبط دون المادة التي لا تعصي، وبها يستطيع أن يرتفع بالطاعة والمعرفة. وليست كرامة الإنسان في مجرد انتمائه إلى النوع البشري، بل في وفائه بالأمانة التي حُمِلها، واستجابته للنداء الذي بلغه.

النَّبَا الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُعِيدَ كِتَابَتَنَا

بعد الفراغ من سورة النبأ لا يعود السؤال: ماذا قالت السورة؟ بل: ماذا صنعت فينا؟ هل أعادت إلى الأرض والليل والمطر دهشتها؟ هل صغرت في أعيننا الجبال المصطنعة التي نخافها؟ هل جعلت الحساب حاضراً في قراراتنا؟ هل نظفت شيئاً من لغونا؟ هل دفعتنا إلى مآبٍ صادق قبل أن يقع المحيى القهري؟ إن التدبر الذي لا يتحول إلى أثرٍ يبقى جمالاً معلقاً فوق الحياة، بينما القرآن نزل ليقودها.

إن النبأ العظيم يريد أن يعيد كتابة الإنسان من الداخل؛ أن ينقل مركزه من الدنيا إلى الله، دون أن يخرج من مسؤولية الدنيا، وأن يجعله يبني وهو يعرف أن البناء يزول، ويحب وهو يعرف أن المحبوبات فانية، ويعمل وهو يعرف أن العمل باق. يريد منه أن يكون حاضراً في الأرض ببصيرته إلى السماء، وأن يحمل في يده أسباب المعاش، وفي قلبه يقين المآب.

من آمن بالنبأ العظيم لا يحتقر اللحظة؛ لأنها قد تحمل مصيره، ولا يحتقر الكلمة؛ لأنها مكتوبة، ولا يحتقر الإنسان الضعيف؛ لأن الله خصمه إن ظلمه، ولا يعظم القوة المتجبرة؛ لأن الجبال ستصير سراباً. لا ييأس إذا غلب الحق، لأن يوم الفصل آتٍ، ولا يغتر إذا انتصر الباطل، لأن جهنم مرصاد، ولا يستكثر الطاعة، لأن الجنة عطاء، ولا يعتمد على عمله، لأن العطاء من ربه.

ومن آمن بالنبأ لا يجعل الخوف نهاية علاقته بالله؛ فالذي أنذر هو الرحمن، والذي وصف النار فتح المفاز، والذي أحصى الكتاب يقبل التوبة، والذي قال: ﴿عَذَابًا قَرِيبًا﴾ قال قبلها: ﴿فَنَنْشَأُ آخِذِينَ إِلَى رَبِّهِمْ مَآبًا﴾. إن باب الخوف يفضي إلى الرجاء إذا دفع إلى العودة، وباب الرجاء يصدق بالخوف إذا منع من الإصرار.

وهذه هي الهدية الكبرى للسورة: أن تمنح الإنسان فرصة أن يعلم اليوم ما سيعلمه الجميع غداً. قال الله في أولها: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۖ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾؛ لكن المؤمن لا ينتظر علم المشاهدة المتأخر، بل يستقبل علم الوحي المبكر، ويحوّله إلى حياة. يعلم قبل أن يرى، فيعمل قبل أن يعجز، ويعود قبل أن يساق، ويكي قبل أن تصير الدموع حسرة لا تنفع.

فيا من مررت بآيات السورة: لا تخرج منها كما دخلت. انظر إلى الأرض التي تحملك بوصفها مهاداً مؤقتاً، وإلى الجبال بوصفها أوتاداً سيأتي عليها التسيير، وإلى نومك بوصفه تذكيراً بضغفك، وإلى صباحك بوصفه فرصة جديدة، وإلى المطر بوصفه شاهداً على الإحياء. وانظر إلى عملك بوصفه شيئاً تقدمه، وإلى لسانك بوصفه أمانة، وإلى قلبك بوصفه الموضع الذي يبدأ منه المآب.

لا تنتظر أن تفتح السماء أبوابها للتؤمن، فقد فُتح لك الآن باب التوبة؛ ولا تنتظر أن تصير الجبال سراً لتعرف ضعفها، فقد أخبرك الله بمصيرها؛ ولا تنتظر أن ترى الكتاب لتراجع سطورك، فما تزال يدك قادرة على أن تكتب خيراً؛ ولا تنتظر أن تقول: ﴿يَا لَيْتَنِي﴾، فبين يديك اليوم مساحة تستطيع أن تقول فيها: يا رب، قد عدت.

وبهذا لا يعود النبأ العظيم خبراً عن نهاية العالم فحسب، بل يصبح بداية جديدة للإنسان؛ بداية قلب عرف أن للوجود رباً، وللعمر غاية، وللعمل كتاباً، وللتاريخ فصلاً، وللتقوى مفازاً، وللطغيان مرصداً، وأن الطريق كله — مهما طال وتشعب — ينتهي عند الله:

﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا﴾.